

تونس الخضراء

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038762854

DATE DUE

AUG 31 2005

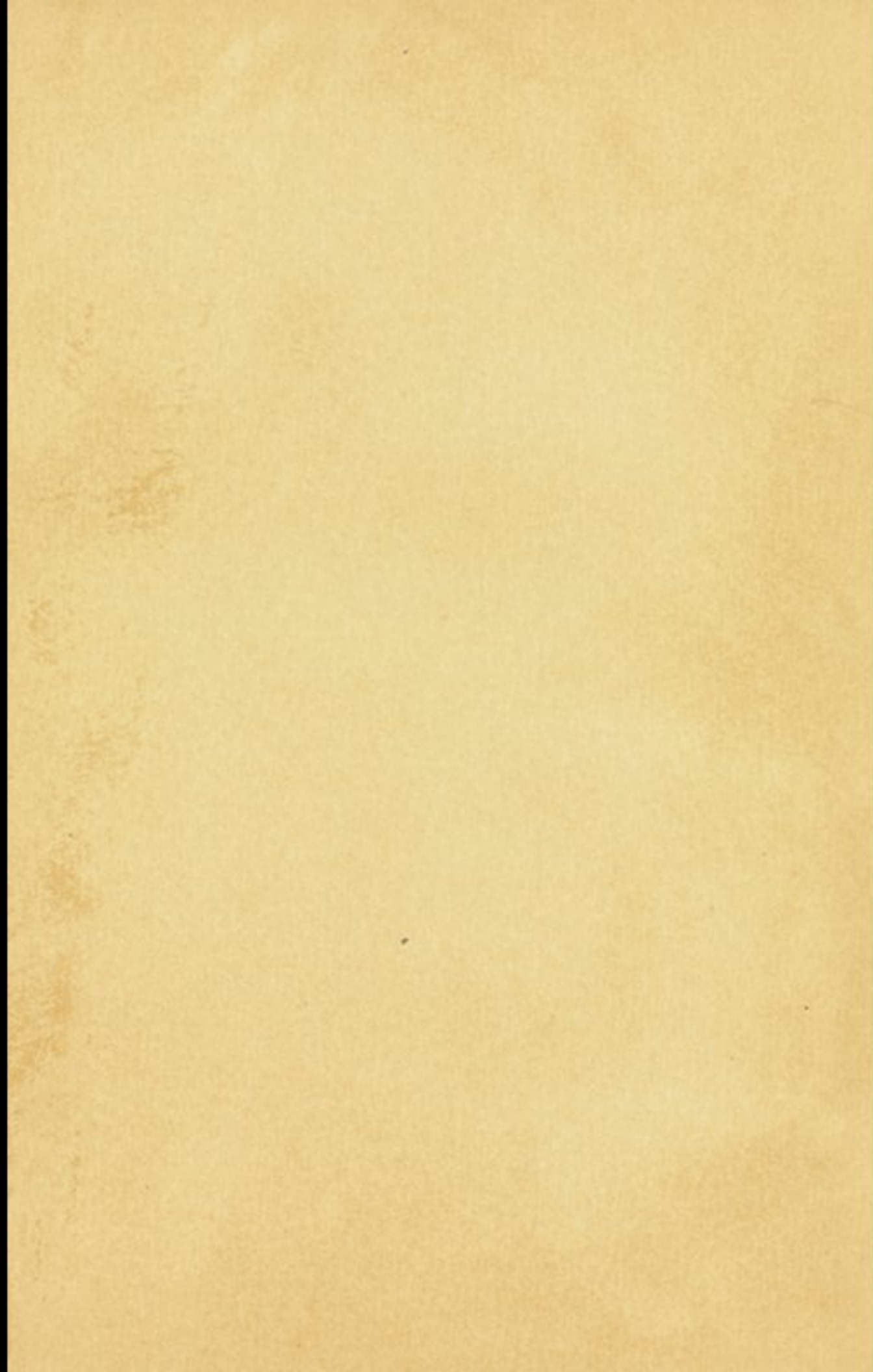
AUG 17 2005

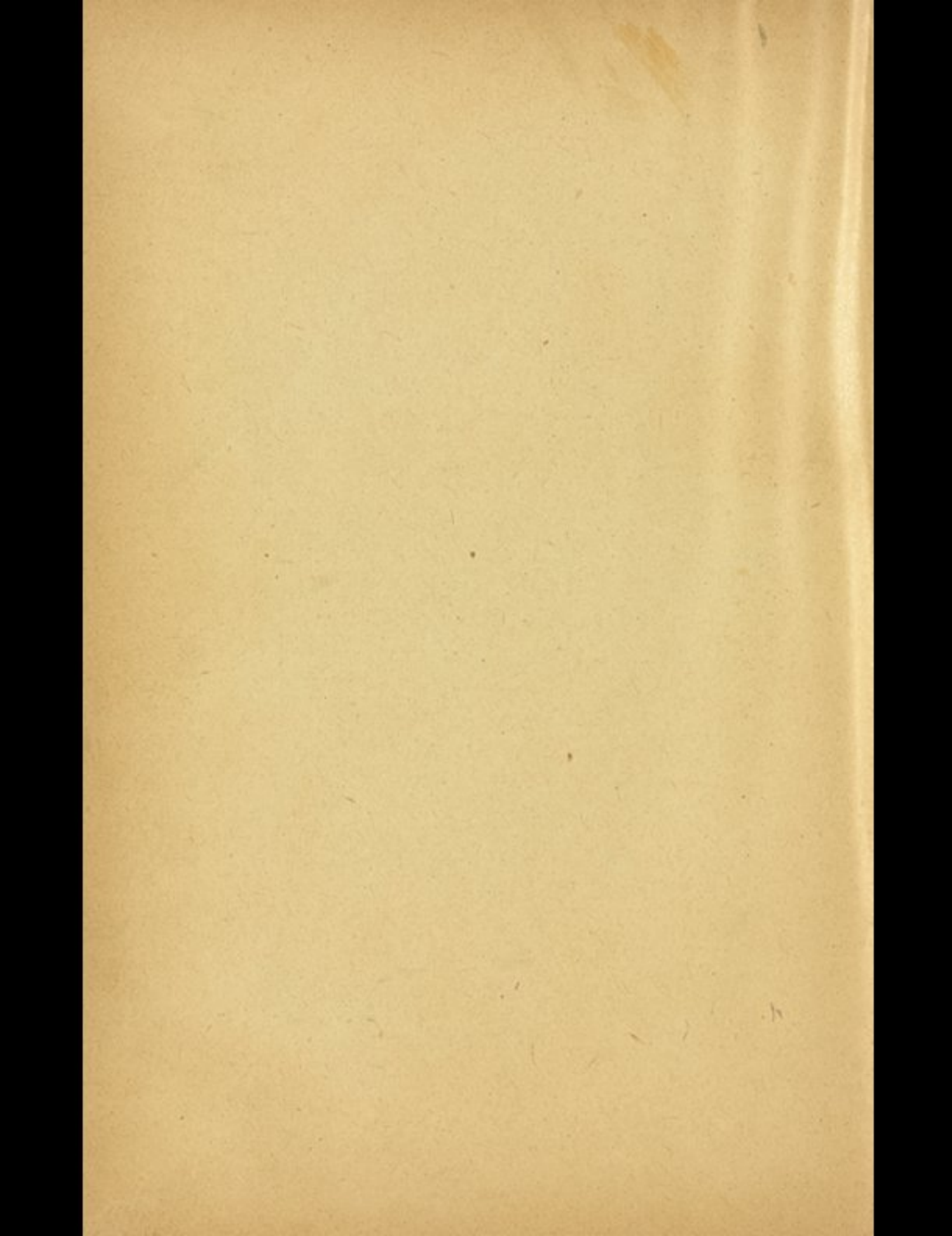
1342

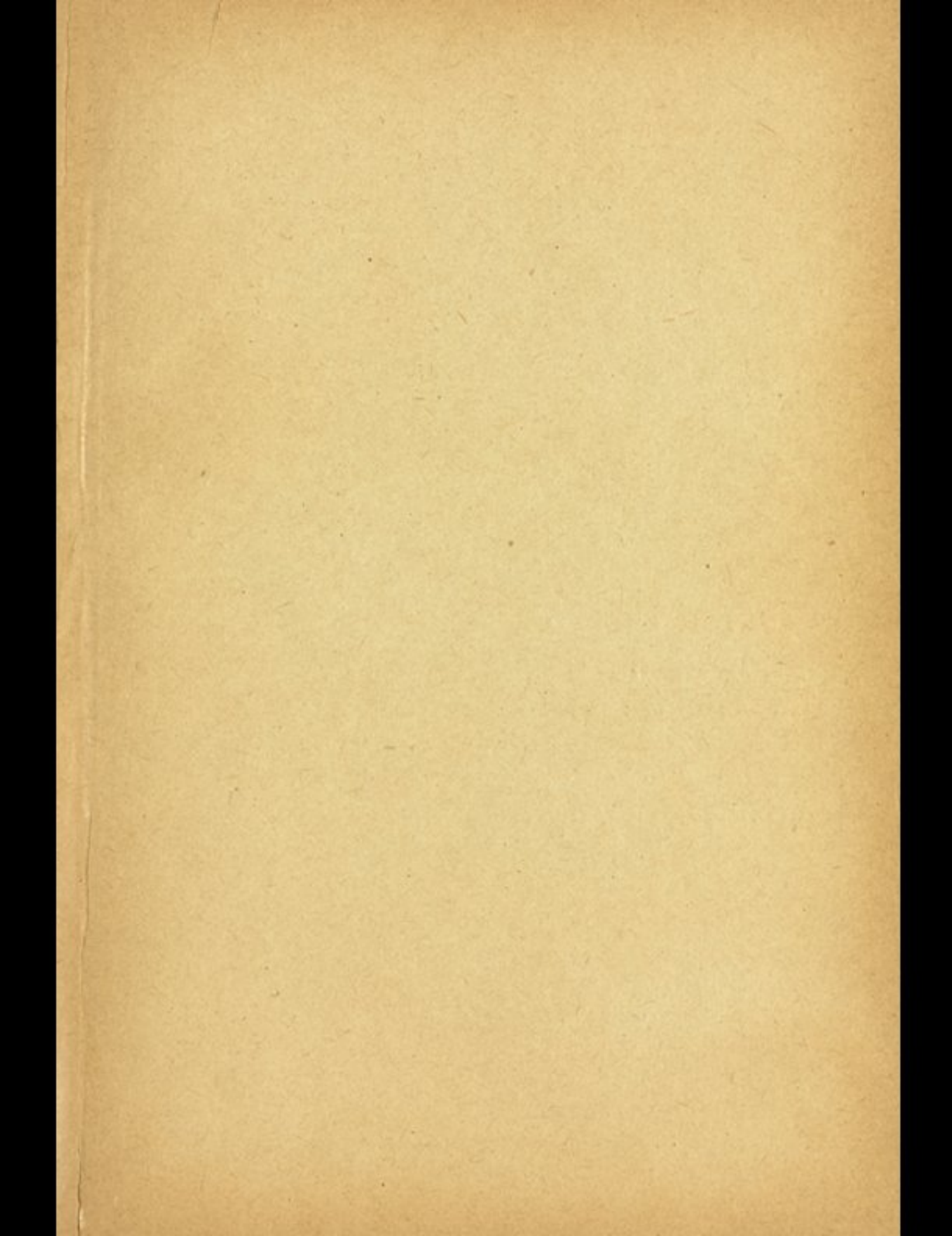
دائر المعارف الاسلاميه



تحتن الخضراء







P + 20-2076 Ma'arif
15/6/45
لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

(C)

257

تونس الخضراء



مكتبة طبعه وشده
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

960: 5
T837

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

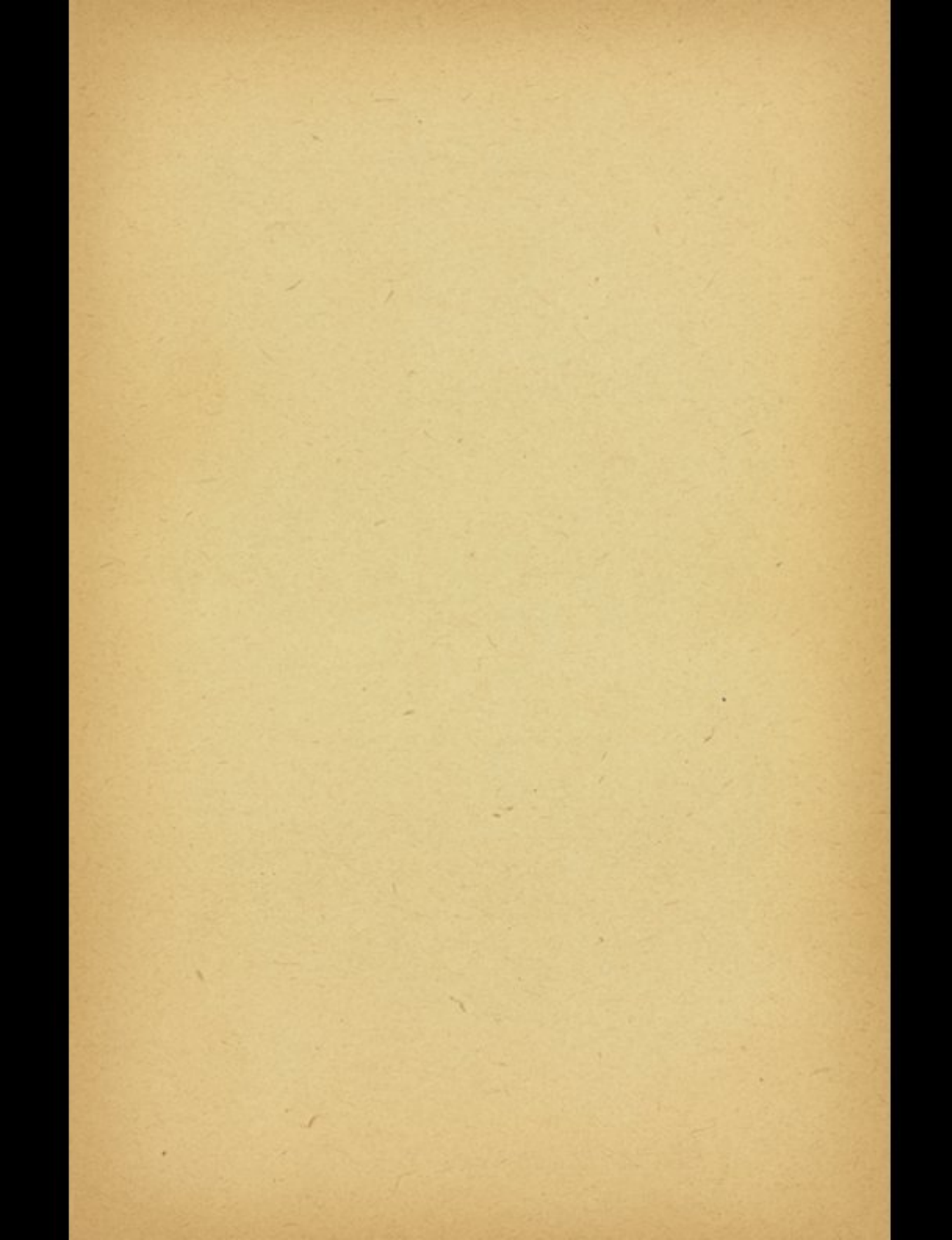
مقدمة

شغلت تونس أذهان العالم من عهد قريب . وقد أحست اللجنة رغبة الناس في استطلاع أخبارها والإلمام بتاريخها فرأت أن تنشر عنها هذا الكتاب المبسط . وهو مستقى من مواد من دائرة المعارف الإسلامية كتبها طائفة من أعلام المستشرقين الفرنسيين . وقد حذفنا منها المصادر ليكون الكتاب أقرب إلى التناول . وتفضل العالم الجليل أستاذنا شفيق بك غربال فتحدث عن طرف من تاريخها الحديث ودرس بعض مشكلاتها السياسية .

وإنا لنترجو أن نوفق إلى نشر كتب أخرى عن سائر أقطار العالم الإسلامي .

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

القاهرة في ٢٦ رمضان سنة ١٣٦٢



تمهيد

تونس المعاصرة

لا يستطيع الباحث في تاريخ تونس المعاصرة الاستغناء عن النظر في أصول وعوامل قد تبدو بعيدة كل البعد عما يجري الآن في ذلك القطر الإسلامي الخاضع منذ سنة ١٨٨١ لحكم دولة أوربية حديثة . فالواقع أن الإسلام الذي انتشر في تونس وفي غيرها من أقطار الشرق القديم خلّ في قطر قديم له وضع جغرافي خاص قد شكاه الفينيقيون ثم الرومان تشكيلا خاصاً — أصبح القطر إسلامياً ، ولكن القوى الكامنة أو الظاهرة والاتجاهات المستترة أو البارزة استمرت بعد الفتح الإسلامي فعالة قوية التأثير — ولا يسعنا في هذا التمهيد الموجز أن نتولى شرح شيء من ذلك ، إنما يكفي أن نحيل القارئ على دراسات الأستاذ جوتييه (E. F. Gautier) وبخاصة على كتابه القيم : "Les Siècles obscurs du Maghreb" (Paris, 1927) في هذا الموضوع .

متى بدأت تونس تتخذ طريقها نحو وضعها المعاصر ؟ أو بعبارة أخرى ، متى بدأت العوامل الفعالة في تشكيلها بشكائها المألوف لنا ؟ نرى أن ذلك كان في القرن العاشر الهجري عند ما امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى ذلك

القطر . وقد ترتب على ذلك من أول الأمر اتخاذ الأقطار المغربية قاصيها ودانيها التقسيم الجغرافي السياسي المعروف ، كما ترتب عليه اندماج القطر التونسي في العالم العثماني بكل ما في هذا من نتائج خطيرة .

وقد تعرضت الأمم العربية والأوربية التي دخلت في نطاق العالم العثماني لأحداث أكسبتها لوناً من الوحدة التاريخية ، كما أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال تلك الأمم بالحضارة الأوربية الناهضة ، وإن كان الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوربيين في القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للمسلمين والمسيحيين من رعايا السلطان العثماني ثمرات نهوضهم العلمي هدية خالصة ، والمنصف لا يجهل أن تقدم الحضارة الأوربية كان في أغلب الأحيان اسماً مرادفاً لما كانت تقوم به الأسرات المالككة في أوربا من الحروب في سبيل المجد ، يشد أزر الملوك — ولكن في سبيل المجد الأعلى — رجال الدين ، وفي سبيل الاستغلال رجال المال . إلا أن ما يؤخذ على الملك العثماني بحق أنه لم يقم على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين باباً لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ما عرفوا من المبادئ فضاغت عليهم بذلك الإفادة مما كان للعالم العثماني من موقع فريد في نوعه ، ومن ميزة اشتماله على أم لها مالها من نصيب كبير في تقدم الإنسانية .

وقد أكسب العهد العثماني تونس — كما أكسب مصر — عنصراً حاكماً جديداً في بابه ، لا يقوم على عصبية قبلية أو دينية ، ولا يدعو لأية

فكرة عامة من أى نوع كان ، بل ليس له من هم إلا الاستيلاء على أزمة الحكم مستعيناً بأعوان على شاكلة ، والمتصفح لتاريخ الدايات والبايات والأغوات والأسطوات والرؤساء العثمانيين فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الهجريين لا يمكنه إلا إقرار ما ذهبنا إليه ، حقيقة كان من هؤلاء الصالح والطالح ، الخير والشرير ، ولكنهم جميعاً ينطوون على نوع واحد من أنواع السلطان .

وتم اختلاف بين هذين العهدين المضطربين من تاريخ تونس ومصر .
ففى الأولى — فى تونس — كان بين العنصر الحاكم فيها وأوربا حرب مستمرة ، أما فى الثانية — فى مصر — فلم يحدث إلا ما كان بين الحكام والتجار الأوربيين من سوء العلاقة .

ومما ينبغى أن يعترف به لذلك العنصر العثمانى الحاكم ما توافرت فيه من صفات قوة القلب والرياسة والاضطلاع بمهام الأمور ، وهى صفات ملكته رقاب الرعية الكادحة . وجعلت منه الأداة الأولى لتطور تونسى جديد ، وذلك أن الكتخدا حسين بن على تقلد أمر تونس فى سنة ١١١٧ هـ ، وتمكن من جعل البايوية وراثية فى بيته — البيت الحسينى — واستمرت فيه إلى يومنا هذا . وقد تقدمت تونس ، مصر — فى هذا ، فقد تولى محمد على باشوية مصر فى ١٢٢٠ هـ وأسس بذلك البيت المحمدى العلوى — .

وقد نجح البيتان الحسينى والعلوى نجاحاً تاماً فى تقويض النظام الذى

أنتههما ، وحطما العصبية المسلحة وغير المسلحة التي ترعرعت في ظل
السيادة العثمانية ، وأقاما سلطانهما على شبه نظام قومي . فبهذا بذلك لنمو
قومية تونسية وقومية مصرية بالمعنى الحديث للقومية .

والمتتبع لتاريخ تونس في ظل البيت الحسيني يلحظ مروره بالأدوار
الآتية — وهي بصفة عمومية شبيهة بالأدوار التي مر فيها التاريخ المصري
في القرن التاسع عشر .

أحسن أمراء تونس إحساساً قوياً بضرورة إنشاء قوة حربية مجهزة
تجهيزاً حديثاً ، تحل محل العصبية المسلحة التي يخشونها ، وتمكنهم من
بسط حكمهم على سائر أجزاء المملكة ، وتصون حدودهم . فبدأوا بهذا
وفعلوا ما فعله سليم الثالث ومحمود في الدولة العثمانية ومحمد علي في مصر .
ثم وجدوا أن هذا يستلزم تنظيماً جديداً لشتى المرافق والادارات ، كما أنه
يستلزم تنمية الموارد الاقتصادية لزيادة الجباية . ويقضى بإعداد جديد
للناشئين .

وقد انبعث من هذه الحركة كل ما واجهته تونس وما تواجهه من
مسائل ومشكلات .

من هذه المشكلات ما يرتبط بالعلاقات بين البيت الحاكم والمحكومين ،
فقد زاد شعور المحكومين بتضامنهم القومي ، وبوجوب نيل ما يكفل منع
سوء الحكم ، وبقى كرامتهم القومية اعتداء الغير ، ويضع بلادهم الموضع
اللائق بها في مختلف الحركات التي هزت العالم الإسلامي هزات متواصلة ،

فأدى هذا إلى اكتساب الأمة حقوقاً وضمانات مختلفة ، أهمها وأهمها ما اشتمل عليه عهد الأمان الصادر في ١٢٧٤ (١٨٥٧) . يذكّرنا هذا بعهد محمد علي باشا وسعيد باشا والخديوي اسماعيل المتضمنة حقوقاً وضمانات مختلفة للرعية والمنتهية بقيام المجالس النيابية في عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق . وفي تونس — كما في مصر — لم تُنَح لأهل البلاد حكماً ومحكومين فرصة العمل على وضع العلاقة بين الأمة والحكومة على قواعد ثابتة يرتضيها الجميع ، بل عَقِد الأمر في القطرين التدخل الأجنبي .

ومن هذه المشكلات ما يتعلق بعلاقة الأمراء بالدولة العثمانية ، فقد أدرك الأمراء إدراكاً تاماً ما في بقاء ارتباطهم بالدولة العثمانية من منافع ، ففي هذا الارتباط شيء من القوة والاطمئنان يقيان بلادهم اكتساح الدول الغربية استقلالهم ، كما أنهم شعروا بما يكنه الشعب من تعلق ببيت الخلافة الإسلامية واعتزاز ببقاء الدولة العثمانية دولة قوية مصونة الجانب ، وبذلك نفهم لمَ وضع أمراء تونس مواردهم الحربية والمالية المتواضعة تحت تصرف السلطان في بعض حروبه ، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يخشون ما تكنه الدولة العثمانية نحو تونس وغيرها من الأقطار المتمتعة بقدر من الاستقلال الداخلي من نيات ، ويحذرون عواقب الغلو في تأكيد التبعية العثمانية ، مما كان يحملهم من وقت لآخر على مجازاة بعض الدول الغربية عندما كانت تشجعهم على الظهور بمظهر الملوك المستقلين ، باستقبالهم في بلادها استقبالات ملوكية ، والدخول معهم في مشارطات ومعاهدات تمس جوانب هامة من

سلطانهم ، ولا يمكن لوم الأمراء على قبول ذلك . فان سياسة الدولة العثمانية جرت في القرن التاسع عشر على وتيرة حملت الأمراء التونسيين على قبول أى تعضيد أوروبى يحول دون تنفيذ الدولة ما تكنه من تقويض استقلال تونس . وما قامت به الدولة العثمانية من عزل الخديوى إسماعيل لما فقد التأييد الأوروبى وما قامت به لإفساد الحركة العربية شاهدان على ما جرت عليه فى تونس ، وقد وقعت الخسارة على الجميع — ما عدا الدول الأوروبية .

ومن المشكلات أيضاً ما يتصل بالعلاقات بالأجانب وبالدول الأوروبية : فقد فتح الأمراء الباب واسعاً للأجانب ، واستعجلوا النهوض واليسر ، فاستقدموا الفنيين الأوربيين يرسمون لهم الخطط ويعاونونهم على تنفيذها ، ومكّنوا للعقول الأوروبية والأموال الأوروبية من استخراج خيرات البر والبحر ، ويسروا لكل طالب رزق من جزائر البحر الأبيض المتوسط وسواحلها أن يتخذ من تونس وطناً ثانياً ، يتوق لو أن ضمه لوطنه الأصلي ملحقاً .

قويت الجاليات الأجنبية ، وأصبح للامتيازات الأجنبية من المعانى غير ما كان لها ، ومن وراء الجاليات القناصل ، ومن وراء القناصل الجيوش والأساطيل ، وأضحت موارد الأهلىن وموارد الحكومة نهباً مباحاً لكل طامع . أما الأموال الأوروبية فقد استخدمت فيما هو قائم على أسس اقتصادية سليمة ، وفيما هو وهمى ، وفيما هو غير ذاهب إلا لاستكمال أدوات الترف

والتقليد الكاذب . والدول الأوروبية في مواقفها لحماية تلك الأموال وأصحابها لم تميز بين الحلال فتؤيده والحرام فتستنكره ، ولم تتحرر عن وجه الحق ووجه الباطل ، بل الكل لديها مصلحة قومية تؤيدها بكل ما تستطيع من قوة . وليت الأمر كان عند ذلك الحد ، فإن التنافس بين الدول كان عاملاً قوياً في تورط الامارة التونسية في الكثير من المشروعات الفاسدة ، فمثلاً إذا نال ماليون من أمة ما امتيازاً بمد سكة حديدية فلا بد أن ينال ماليو أمة أخرى امتيازاً يماثله ، وقد لا تكون له ضرورة . وهكذا ، والمصرى لا يسعه إلا أن يذكر في هذا مالي مصر سعيد واسماعيل .

والخلاصة أن الأمراء وضعوا أنفسهم وبلادهم في شرك لم يستطيعوا منها خلاصاً ، وكلما امتد بهم الزمن ضاقت العيون وازدادوا خبالاً .

وقد وجد الأمراء في تنافس الدول الأوروبية الكبرى أملاً في تجنب ضياع استقلال بلادهم ، والواقع أنه كان شراً عليهم ، إذ كان مدعاة لمحاولة إرضاء الكل — وفي هذا من تبديد الموارد والحقوق ما فيه ، كما كان صارفاً بكل جهود الحكومة التونسية نحو استقرار طوائع الجوسياسى الأورپى علها تهتدى لطريق يقيها الزلل ، كما كان مفسداً لبطانة الأمير ، يميل رجل منها لدولة أوربية ما فيصبح رجلاً في تونس وينحاز آخر لدولة أخرى فيصبح عدواً لمواطنه ، وهكذا ، وقناصل الدول كل منهم يؤيد مشايخه التونسي ، كما يحاول أن يجتذب إلى صفه رجال الحكم التونسيين أو كل ذى حظوة لدى الأمير ، وقد اتخذت هذه المحاولات ألواناً شتى من

الترغيب والترهيب ، مما أفسد الضمائر والذمم .

لهذه الأسباب كلها لم تُصَب المحاولات الدولية لحل مسائل الدين ونظيراتها من المسائل نصيباً من النجاح ، كما كان الحال في مصر ، وكيف تفجح وقد تحولت اللجان الدولية لتسوية الديون ومراقبة المالية التونسية ميداناً جديداً اشتد فيه النزاع بين ممثلي الدول ، بل إن من ممثلي الدول من عمل على فشل الفكرة الدولية ليثبت اثباتاً لا يدع محلاً لشك أن الإدارة الوطنية قد عجزت عجزاً تاماً عن إصلاح الخلل من أحوالها ، وأن علاج تلك الأحوال بخلق هيئات دولية قد أتى بعكس المقصود منه فأدى إلى تفاقم العلة ، والحل الوحيد المجدي إذن هو أن تتولى الأمر كله دولة أوربية .

من تكون تلك الدولة ؟ وكيف يمكن أن تتخلى لها الدول الأخرى ؟
أذلك مستطاع دون عوضٍ ما في مكان آخر غير تونس ؟ وأين ذلك المكان أو تلك الأمكنة ؟

معنى هذا أنه كان لا بد لتحول الرقابة الأوربية في تونس إلى رقابة دولة واحدة من ظروف أوربية أدت إلى مواجهة مشكلات مستقبل العالم العثماني كله ، إلى وضع المسئلة الشرقية — كما كانوا يقولون إذ ذاك — على بساط البحث عندئذ ، وعندئذ فقط — تتحتم مواجهة الحقائق ، وتبرز القوة أداة للتنفيذ ، فيخضع لها من ليس مستعداً لمواجهة بقوة تساويها .
وقد خلقت الثورات في البلقان ضد الحكم العثماني والحرب بين

الروسيا والدولة العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) هذا الموقف الذى وصفنا ،
وفى هذا الموقف وُلدت حماية فرنسا لتونس ، كما وُلد أيضاً الاحتلال البريطانى
لمصر ، وقد بدأ بتلك الحماية الفرنسية فعل العامل الأخير فى تشكيل تونس
المعاصرة ، ويجدر بنا وقد نشرت الحكومات الأوروبية بعد الحرب العالمية
الماضية الكثير من وثائقها السرية السياسية أن نعرض بشئ من التفصيل
كيف نالت فرنسا ما كانت تصبو إليه من السيطرة على تونس ، وما ترتب
على ذلك من عواقب لتلك البلاد وأهلها .



كيف أدى التطور الذى شرحنا معالمه إلى وقوع تونس تحت السلطان
الفرنسى وحده ؟ لبيان هذه النهاية لا بد لنا من البحث عن أسبابها فى
العلاقات الأوروبية التالية لهزيمة فرنسا فى سنة ١٨٧٠ ، وفى تأثر تلك
العلاقات بالأزمة الشرقية المترتبة على هزيمة الدولة العثمانية فى حربها مع
الروسيا سنة ١٨٧٧ .

لقد بدأت حوادث سنة ١٨٧٠ عهداً جديداً فى التاريخ الأوروبى
الحديث ، فقد أثرت هزيمة فرنسا الكاملة وإتمام خلق الإمبراطورية
الألمانية واقتطاع إقليمى الألزاس واللورين من جسم فرنسا الحى فى
العلاقات الأوروبية حتى يومنا هذا . ويشاء موقف الدول الأوروبية فى العالم
أن كل ما يجرى فى أوربا يتردد صداه فى أراضٍ وبين أقوام « لا ناقة لهم
فيها ولا جمل » .

كان همُّ ألمانيا الجديدة بعد ١٨٧١ وشغلها الشاغل أن تمنع فرنسا من
نقض ما تم في تلك السنة ، واتجهت خطط عاهلها العظيم — بسمارك —
نحو عزل فرنسا عزلة سياسية فلا تجد حليفاً أوروبياً قوياً يشد أزرها في
حرب ضد ألمانيا . وقد فضّل بسمارك أن تقع فرنسا تماماً تحت سلطان
أحزاب اليسار الجمهورية اعتقاداً منه بأن أمل تلك الأحزاب في نيل تأييد
سياسي أوروبي أقل من أمل أحزاب اليمين وأن انتصار الأحزاب الجمهورية
الفرنسية يضعف من شأن الكاثوليكية في ألمانيا ، وكانت إذ ذاك في حرب
شعواء ضد بسمارك .

ولم يكن بسمارك بالسياسي الذي يكتفي بالإجراء السلبي ، أو الذي
يعتقد بإمكان قمع أمة كالأمة الفرنسية إلى الأبد ، بل هناك ما يثبت أنه
أدهشته سرعة نهوض فرنسا من كبوتها في السنوات التالية لسنة ١٨٧١
وأنه اعتقد أنه ينبغي أن يضع نصب أعين زعمائها أهدافاً يجدون في تحقيقها
منصرفاً للهمم القومية وغسلاً لعار الهزيمة الكبرى واستعادة لمركزهم القديم
بين الأمم وإبعاداً لهم عن فكرة « الانتقام » المتملكة العقول — لذلك
كله عرض بسمارك على فرنسا في أكثر من مرة بسط سلطاتها على تونس .
ولم يكتف بهذا بل أدرك أن إرضاء المطامع الأوروبية في أنحاء البلقان
والشرقين الأدنى والأوسط ما يكفل صيانة ما تم في أوروبا نفسها ويحول
دون قيام محالفات أوروبية لقلب الحالة القائمة ، فلم يكره امتداد النفوذ
الروسي في الدولة العثمانية على شرط أن تنال الأمبراطورية النمساوية المجرية

ما يرضيها في البوسنة والهرسك ، وعلى شرط قبول الحكومة الإنجليزية أن توطن أقدامها في مصر وغيرها من المناطق الشرقية التي تهتمها بالذات . ولم تصب السياسة البسماركية في السنوات الواقعة فيما بين ١٨٧٠-١٨٧٧ إلا قدراً محدوداً من النجاح . فلم تبد بوادر تدل على أن تسوية ١٨٧١ قد أصبحت نهائية بالمعنى الصحيح . أو أن فرنسا أو إيطاليا أو روسيا أو النمسا والمجر أو إنجلترا مستعدة للتسليم تسليماً خالصاً بالوضع البسماركى للأشياء .

ولكن عندما تشتغل الثورات في بعض ولايات الدولة العثمانية في البلقان ، وتأخذ الدولة العثمانية التأثيرين وغير التأثيرين بما درجت عليه من ضروب الشدة الوحشية ، وتغزو الدولة الروسية أراضي السلطان في أوروبا وآسيا، عند ذلك وجدت الدول الأوربية الأبد من مواجهة حقائق الأشياء . وتلعت كل منها في الشهور السابقة لصلح سان استيفانو كما في الشهور التالية حلا يصون مصالحها الخاصة ويكون في نفس الوقت أساساً لتسوية شرقية عامة — أما فرنسا فأمامها مشكلتها الكبرى، أمامها إلا طمأنينة حقيقية إلا إذا وجدت لنفسها حليفاً قوياً، وما لم يتيسر لها ذلك فلا بد من تجنب الأزمات والابتعاد عن مواطن الزلل ، فابتعدت بقدر الاستطاعة عن الأحاديث والمفاوضات المتعلقة بالمسئلة الشرقية ، وترددت في قبول الدعوة لمؤتمر أوربي يستعرض صلح سان استيفانو ويحيل هذا الصلح من اتفاق روسي عثماني إلى تسوية ترضاه أوروبا . ثم اشترطت لقبولها ألا يبحث المؤتمر إلا

ما اتصل مباشرة وطبيعياً بالحرب بين روسيا والدولة العثمانية . وفسرت هذا بالألّا يعرض على المؤتمر أى شأن من شئون غربى أوربا أو من شئون مصر وسورية والبقاع المقدسة [رسالة من وزير خارجية فرنسا لسفرائها فى برلين ولندن وروما الخ بتاريخ ٧ مارس ١٨٧٨ — الوثيقة رقم ٢٦٢ من المجلد الأول من الوثائق السياسية الفرنسية] ، ولما ضمن لها هذا قبلت الدعوة لمؤتمر برلين .

وأما الحكومة البريطانية ، فيمكن القول بأن حوادث السنوات ١٨٧٦ و ١٨٧٧ و ١٨٧٨ قد هدمت فيها خطة المحافظة على الدولة العثمانية وأحلت محلها خططاً أخرى متناقضة ، إحداها خطة الأحرار (وهم فى المعارضة) القاضية بأن يكون رائد الحكومة الرائد الإنسانى المسيحى . أى تحرير الشعوب العثمانية المسيحية المغلوبة على أمرها ، وخطة ثانية : هى خطة رئيس الوزارة (اللورد بيكونز فيلد) وهى تتكون من عناصر شتى : من السياسة التقليدية البريطانية ومن القيام بمغامرات حربية وسياسية من أشباه ما كان الشاب الطموح بنيامين دزرائيل يتلهم به فى قصصه ، ولم يصل دزرائيل للحكم إلا بعد أن أصبح شيخاً حطمته السنون والأمراض ، وفى الخطة البيكونز فيلديّة ما اجتذب إليه بالذات الملكة والعامّة وكل من شبوا على كره روسيا من المحافظين . وخطة ثالثة . وهى خطة وسطى ، خطة التسليم بالواقع ، بأن إنقاذ الدولة العثمانية كما هى حلم قد زال ، بأن تحرير الشعوب المسيحية هدف طيب

حقيقة جدير بالاحترام ، ولكن الأجدر منه بالاحترام ألا يكون التحرير سبباً في إثارة حروب وإسالة دماء ، وأن المغامرات الحربية والسياسية قد لا يحترمها السياسي الإنجليزى في قرارة نفسه ، ولكنه لا يسعه إغفالها تماماً . فالواجب يقضى إذن بمخطة عملية تسير الظروف محاولة الوصول إلى حل سلمى يرضى الجميع . ويمكن القول بأن هذه هى خطة سالسبورى وزير الهند أولاً ثم وزير الخارجية ثانياً فى وزارة بيكونسفيلد .

وقد عملت الحكومة البريطانية ما تستطيع أثناء سير الحرب بين روسيا والدولة العثمانية لإثبات وجهة نظرها ولتشجيع الدولة العثمانية على إطالة مدة المقاومة ، مما حمل معارضى الحكومة على اتهامها بأنها ترمى لإعلان الحرب على روسيا . كما حاولت تأليف ما سمته « حلف البحر الأبيض المتوسط » من انجلترا وفرنسا وإيطاليا واليونان والنمسا لصيانة مصالح دول الحلف التجارية والسياسية فى ذلك البحر واتخاذ ما يلزم لمنع مسها بأذى ، ولم يؤد هذا إلى نتيجة ما ، فقد خشيت فرنسا وإيطاليا مغبة التورط فى عمل إجماعى كهذا ، أما النمسا فبحال سياستها أوسع من ذلك البحر وتفاهمها مع روسيا وألمانيا حقيقة واقعة ، واليونان وحدهم لا يؤلف منهم أحلاف — والمفاوضات الخاصة بهذا الحلف جديرة بالعناية ، فقد جعلت الحكومة البريطانية لاتؤمن بالسياسة الإيطالية بصفة خاصة وسيكون لهذا أثره فيما بعد فى استيلاء فرنسا على تونس .

بعد هذه المحاولة عادت الحكومة البريطانية إلى العمل الانفرادى ، فعبّر

الأسطول البريطاني في ١٤ فبراير ١٨٧٨ مضيق الدردنيل على الرغم من احتجاج الحكومة العثمانية — واستقال وزير الخارجية اللورد دربي كارهاً ما يمكن أن يؤدي إلى حرب مع روسيا وتولى سالسبوري وظيفته. وفي ٣ مارس ١٨٧٨ وقعت الدولة العثمانية صلح سان استفانو وكانت شروطه معروفة .

وقد أخذت الحكومة البريطانية تعمل من جانبها لصيانة مصالحها في الظروف الجديدة التي كشف عنها انهيار الدولة العثمانية .

لقد كشف ذلك الانهيار عن استحالة إقامة الحكومة العثمانية على ساقها ، فلا بد لها من أن تتكىء على سند ، [من خطاب من سالسبوري لبيكونسفيلد بتاريخ ٢١ مارس ١٨٧٨ الوثيقة رقم ١٤٢ من كتاب أسس السياسة البريطانية] . أما فيما يتعلق بممتلكاتها في أوروبا فهذه — إن قريبا وإن بعيداً — مقدر عليها الزوال ، والمسألة هي أنه ينبغي للسلطان لأجل الاحتفاظ بممتلكاته في آسيا من حليف . هذه الممتلكات شأنها غير شأن ممتلكاته في أوروبا ، فليسوا أمماً تسعى للاستقلال وما إليه ، فمعظمهم مسامون والحكم العثماني أصح ما يمكن لمسامين الحصول عليه (إذا استثنينا الحكم البريطاني) ، فينبغي إذن أن نعاون الدولة العثمانية على الدفاع عن تلك الأراضي في آسيا وحسن إدارة شؤونها . ولا نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا استولينا على قواعد أقرب لتركية آسيا من مالطة [من كتاب من سالسبوري لسفير إنجلترا بالقسطنطينية بتاريخ

٩ مايو ١٨٧٨ - الوثيقة رقم ١٤٥ من كتاب أسس السياسة البريطانية [.
تفسر هذه الآراء الاتفاق الذي عقد بتاريخ ٤ يونيو ١٨٧٨ الذي
تسلت الحكومة البريطانية بموجبه جزيرة قبرص ، كما تفسر أيضاً
اتفاق الحكومتين البريطانية والنمساوية بتاريخ ٦ يونيو ١٨٧٨ على
توحيد غاياتهما في المؤتمر نظير السماح للحكومة النمساوية باحتلال إقليم
البوسنة والهرسك .

بعد هذه التمهيدات وغيرها اجتمع المؤتمر في برلين وتولى رياسته بسمارك .
أعلن في أثنائه الاتفاق الخاص بقبرص وثارث نائرة الوفد الفرنسي - وكان
لابد من إرضائه للوصول بسفينة المؤتمر لبر السلامة . وعمل بسمارك من
جانبه على إصلاح ما بين الانجليز والفرنسيين ، فكان عرض تونس على
فرنسا . وتم هذا العرض واضحاً ، قال سالبوري لوادنجتن رئيس الوفد الفرنسي
ببرلين ووزير الخارجية « افعلا بتونس ما تريدون . إنكم ستضطرون
لامتلاكها ، لا يمكنكم ترك قرطاجنة للبرابرة » وكرر ذلك اللورد
بيكونسفيلد ، وأكد نفس ولى العهد البريطاني في باريس [راجع في
ذلك - على سبيل المثال - الوثيقة رقم ٣٣٠ من المجلد الأول في مجموعة
الوثائق الفرنسية : رسالة من وادنجتون لداركور سفير فرنسا في لندن بتاريخ
٢١ يولييه سنة ١٨٧٨]

وقد شرعت وزارة ديفور (وهي الوزارة التي قبلت هذا العرض) تستعد
فعلاً لتنفيذه بالتمهيد له في تونس نفسها . ولكنها عدلت عنه . ولم يتم تحقيقه

كما نعرف إلا في أثناء سنة ١٨٨١ وعلى يد وزارة جول فرى (Jules Ferry) بانية الامبراطورية الفرنسية الاستعمارية الجديدة .

أ كان ذلك لعدول الحكومة البريطانية عما وعدت به في ١٨٧٨ ؟ حقيقة أن موقف حكومة المحافظين ثم حكومة الأحرار من وعود سنة ١٨٧٨ كان له شيء من التأثير في تردد الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، إن ذلك الموقف لم يبلغ حد الانكار أو النكوص ولكنه اتخذ شيئاً من تضيق التأويل ، فقد قرر اللورد سالسبورى أنه حقيقة يذكر أنه قال الألفاظ التي أسندها له وادّجبتون ولكنه يذكر أنه لم يدر في خلدّه أنها تؤدي معنى عرض تونس على فرنسا ، إذ كيف يستطيع منح ما ليس يملكه ، وأضاف إلى ذلك أن الوعود الانجليزية لا تفيد أكثر من إطلاق يد فرنسا في تونس بلا معارضة انجليزية أى أن إنجلترا نزلت عن كل ما تدعيه لنفسها في تونس ولكنها لا تذهب إلى حد إرغام الغير (وتقصّد بذلك إيطاليا) على النزول عن ادّعاءاتها

بعث ذلك الموقف إيطاليا على اتخاذ موقف عداء صريح من فرنسا في تونس ، ووجدت فرنسا ألا بد من القيام بعمل حاسم في تونس قبل أن تسبقها إيطاليا إليه وحسمها بسمارك على اتخاذ هذه الخطوة .

ولا يفيد ذلك أن الرأي العام في فرنسا ممثلاً في البرلمان أو في الصحافة قد مال إذ ذاك إلى صف المشروعات الاستعمارية ، الواقع أن لا . بل إن ذلك الرأي العام لم ير فيها إلا شبه خيانة للقضية القومية الكبرى ، تشتيماً للجهود ، إلا تسليماً نهائياً بتسوية ١٨٧١ . وهل يطلب دليل على صحة هذا

أقوى من كون التشجيع على الإقدام على تلك المشروعات يأتي من
بسمارك نفسه ؟

والواقع أنه لا الرأي العام ولا البرلمان قد عدلا عن خطتهما ، والصحيح
أن جانباً قوياً من الزعامة الجمهورية قد انحازت إلى الرأي القائل بأنه ينبغي
على الجمهورية ألا تبقى إلى الأبد متسرلة بثياب الحداد ، بل عليها أن
تنهض وأن ترعى مصالحها وأن تقبوا مكانها الجدير بها

كان جول فرى من أبناء اللورين ، ولا بد أنه أحس بكارثة ١٨٧١
إحساساً قوياً ، ولكنه كان يرى أيضاً أن ذلك الجيل من الفرنسيين كان
عليه واجبات نحو فرنسا وأن فرنسا ينبغي ألا تنزل عن مكانها الخلق بها
وأن مصلحتها في بلاد الجزائر وتأمين حدودها ورعاية مصالحها في تونس
تتطلب عملاً حاسماً في تونس وإلا سبقتها إيطاليا إليه . أى أنه كان يرى
أنه ينبغي أن يأخذ أكثر ما يستطيع دون نزول أو تخل عن حقوق فرنسا
التاريخية ، وقد تحمل في سبيل فكرته هذه عنقاً شديداً من مواطنيه .

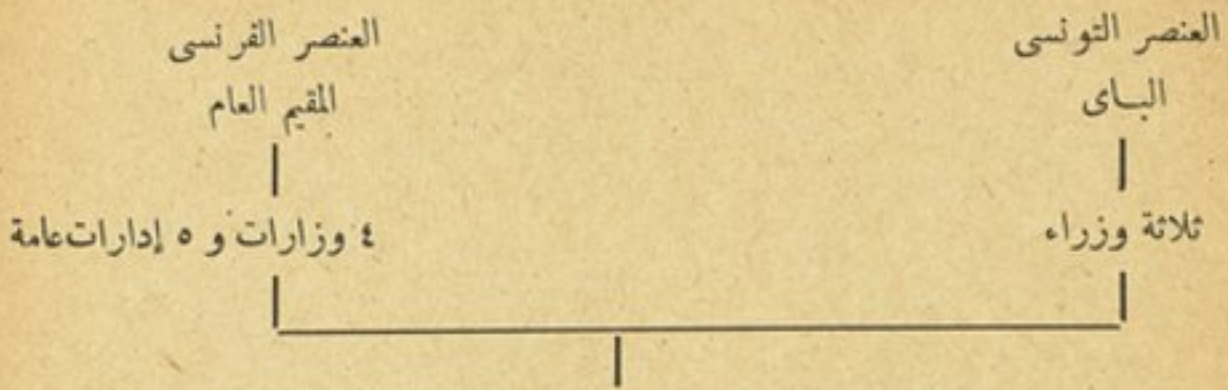
والظاهر أيضاً أن فرى لقي تأييداً في خطته من الزعيم الجمهوري الكبير
جامبتا الذي أخذ في آخر أيامه يبتعد شيئاً ما من فكرة حرب انتقامية
ضد ألمانيا .

وقد حملت هذه العوامل المختلفة « فرى » على أن يخفي جهده الاستطاعة
حدود عمله في تونس ، وأن يضيق دائرة التزامات فرنسا في تونس .
دخلت الجنود الفرنسية تونس تحت ستار تأمين الحدود وأرغمت الباي

على توقيع معاهدة باردو (مايو ١٨٨١) . وتعطى هذه المعاهدة فرنسا حق احتلال الأرض التونسية وإدارة المسائل الحربية ، ولكنها لا تشير إلى الحماية الفرنسية ، وعلى أثر الاضطراب في صفاقس ، وقع الباي اتفاقا ثانيا (يونيه ١٨٨٣) نالت به فرنسا حمايتها لتونس والتدخل في مسائلها الداخلية . وقد تم سنة ١٨٨٤ تكوين أدوات الادارة اللازمة وبدأت تونس عهداً جديداً .

سارت فرنسا في تونس على نهج يخالف منهجها في الجزائر ، ولم ينل الحياة الاسلامية في تونس ما نالها في الجزائر من التحطيم المقصود وغير المقصود فتونس في العهد الفرنسي قطر « محمي » له إطار إداري تونسي ، على عكس الجزائر فهي « قطعة » من فرنسا ، والجزائر أرض استعمار يستفلقها ألوف من الفلاحين الأوربيين فرنسيين وغير فرنسيين ، أما تونس فهي أرض « استغلال » تعمل فيها « رؤوس الأموال » الكبيرة فرنسية وغير فرنسية وفي تونس ما تثيره السلالة الايطالية المستقرة بها من مشكلات تمس العلاقات بين إيطاليا وفرنسا « ولا تعرف الجزائر » مشكلات من ذلك النوع .

إن الفضل في وضع قواعد الحكم الفرنسي في تونس يرجع بصفة خاصة لبول كامبون (Paul Cambon) المقيم العام فيما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٦ . ويمكننا أن نحال في الوضع التالي الثنائية الفرنسية التونسية إلى ما انتهت إليه :



المجلس الكبير

(ويتكون أحد قسميه من ٤٤ فرنسياً والآخر من ١٨ تونسياً)
(وله حق الموافقة على بعض فصول الميزانية)



٥ مجالس اقليمية

(ويتكون أحد قسمي كل مجلس من ١١ فرنسياً والآخر من ١٠ تونسيين)
وهي مجالس استشارية



مجالس القيادات

(وهي انتخابية استشارية وتتكون من تونسيين فقط)

يدل هذا على اتجاه الخطة الفرنسية نحو جعل اشتراك الفرنسيين وأهل البلاد وسيلة لرعاية وتنمية المصالح المشتركة وبمخاصة في الدائرة الاقتصادية ، وهو تنظيم يهمل جانب الاعتبارات القومية كما أنه يعطل نمو الحياة السياسية . والظاهر أن أهل البلاد يحسون إحساساً شديداً بأن ذلك التنظيم لا يرضى أمانهم فنظموا حركات شبيهة بالحركات الحديثة في

بعض الأقطار الإسلامية الأخرى لتحقيق برامج سياسية قومية تسودها
المعاني والنظريات الغربية ، ولا تزال بعد — في مصر كما في تونس وفي
غيرها — نرقب فجر حركات أعمق وأدوم . فجر ابتعاث « حياة إسلامية »
تامة . وهذا الفجر لما تلح بعد تباشيره .

مفتي غربال

« المراجع »

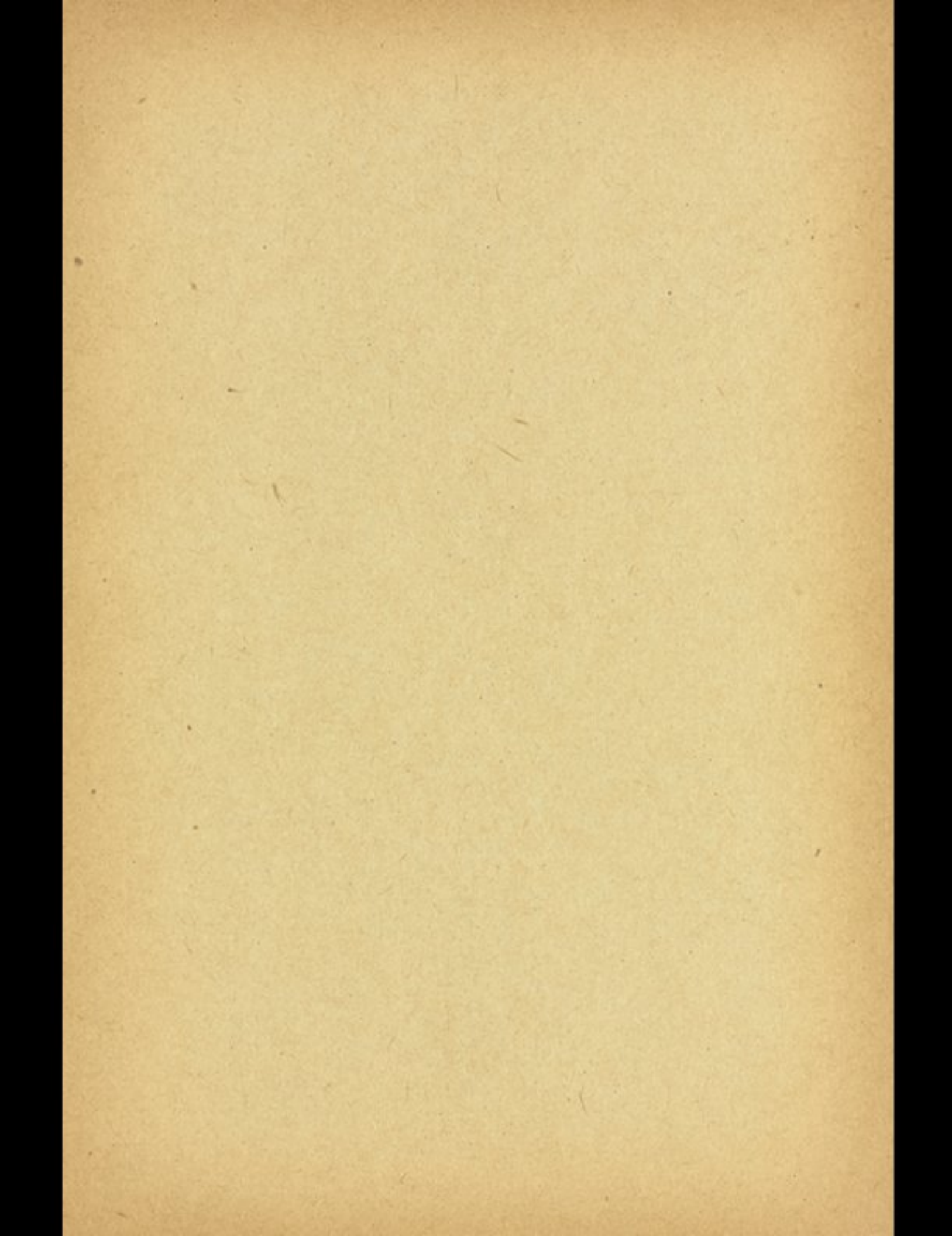
١ — مجموعات الوثائق :

1. Ministère des Affaires Etrangères. Documents diplomatiques françaises. Première Serie. Tmes. premier, second, trois.
وقد نشرت في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ وتعلق بالسنوات من ١٨٧١ إلى ١٨٨١
الترجمة الفرنسية لمجموعة الوثائق السياسية الألمانية تحت العنوان الآتي :
2. "La politique exetérieure de l'Allemagne," tomes 1, 2, 3,
وتعلق بحدوث السنوات من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢ وقد نشرت في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٨
3. Temperley & Penson : Foundations of British foreign Policy
Cambridge, 1938.
وهي مختارات جيدة توضح قواعد السياسة الخارجية البريطانية .

ب — دراسات :

الدكتور محمد مصطفى صفوت :

1. "Tunis and the Powers"
رسالة لم تنشر بعد ، مستندة على المصادر الأصلية ، في موضوع العلاقات بين تونس والدول العظمى .
2. Stephen. H. Roberts :
History of French Colonial policy
في مجلدين ، ١٩٢٩ بحث علمي نزيه في تاريخ الاستعمار الفرنسي من ١٨٧٠ إلى ١٩٢٥ لا يستغني عنه المتابع لتاريخ الأمم الإسلامية الواقعة تحت السلطان الفرنسي .
3. James Headlam — Morley :
وكان المؤلف في وقت ما مستشاراً لوزارة الخارجية البريطانية في المسائل التاريخية
Studies in diplomatic history.
نشر في سنة ١٩٣٠ وهذه مجموعة من تسع دراسات مهمة ، واحدة منها تؤرخ العلاقات المصرية الأنجليزية وأخرى تشرح وضع إنجلترا يدها على جزيرة قبرص في سنة ١٨٧٨ .
4. R.W. Seton-Watson : "Disraeli, Gladstone and the Eastern Question". London 1935.
باريس ١٩١٧
5. J. L. de Lanessan : "La Tunisie."



جغرافية تونس

مساحة تونس بحدودها الحالية بين خطى طول ٨° و ١١° شرقاً وخطى عرض ٣٢°، ٣٧° شمالاً : ١٨٠ و ١٢٥ كيلومتراً مربعاً ، وتتأخها من الغرب الجزائر ومن الجنوب الصحراء ؛ ومن أقصى الجنوب الشرقى ليبيا الإيطالية أى طرابلس ، وتضرب مياه البحر الأبيض المتوسط سواحلها فى الشمال والشرق وأغلب هذه الشواطىء أراض منخفضة . ومناخها على الجملة دفى معتدل ، ولكن سقوط الأمطار يختلف كثرة وقلة من ناحية إلى أخرى بل من سنة إلى سنة ، وللقرب من البحر أو من الصحراء شأن فيه ، ولذلك يختلف كثيراً باختلاف خطوط العرض واختلافاً أكثر بارتفاع الأرض . وتضاريسها جد متباينة ومتوسط ارتفاعها فوق سطح البحر ليس كبيراً . وتمتد جبالها من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وهى بقية جبال الجزائر . وفى الشمال الغربى لتونس جبال من الطباشير والحجر الرملى ، وقلما يزيد ارتفاعها تجاه الجزائر على ثلاثة آلاف قدم . ويهطل على هذه الجبال مطر غزير ، ويغطيها البلوط والحسك ، وفيها مناجم الزنك والحديد ، وهى تسير الساحل حيث نصادف ثغر طبرقة الصغير ، ثم كثنان نفزة ورأس العبد وشبه جزيرة رأس سرات الصغيرة ؛

ويقل ارتفاع هذه الجبال في الشرق شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ التلال التي تكتنف سهل بنزرت وماطر، وكلاهما وافر الماء يشمر ثمرات طيباً من الحنطة؛ وبحيرة بنزرت ويصلها بالبحر مجاز ضيق، فرصة حسنة مأوها بعيد الغور تجاه صقلية، وهي على مقربة منها. ويشرف على سهل ماطر جبل عجيب يعرف بجبل أشكل، وقد أوشك هذا السهل أن يغطي بالغرين، ولم يعد به من البطائح إلا القليل. وأبعد من هذا ناحية الشرق رأس سيدي على المسكى فوق غار الملح، وهو يتاخم خليج تونس من الشمال، ويملاً هذا الخليج الرسوب الذي يحطه نهراً مجرّدة ومليان. ذلك أن أوتيكا، وكانت من ثغور الرومان، تبعد الآن عن البحر ستة أميال. أما شبه جزيرة قرطاجنة، وكانت من قبل جزيرة، فيصلها بأرض تونس برزخ يفصل سبخة الرينة من بحيرة تونس. ويصل حلق الوادي البحر بهذه البحيرة — وفي طرفها مدينة تونس. ولا يغزر المطر في ناحية تونس، ولذلك تجود فيها الكروم والفواكه ولا تجود الحبوب.

ويخترق نهراً مجرّدة شمالى تونس من الغرب إلى الشرق وهو النهر الوحيد في تونس الحقيقي بهذا الاسم، ويقل مأوه كثيراً في الصيف، ويفيض ويكدر من نوفمبر إلى أبريل. وتفصل (حلق تستور) مجراه الأسفل (مجاز الباب وطبرية) من مجراه الأوسط حيث يروى غوردخلة (ناحيتي سوق الأربعاء وسوق الخميس) وهو غنى بالحبوب والمراعى شأنه في ذلك شأن تلال بجاية الطباشيرية المجاورة له، وتكتنف وادي

نهر مجردة من الشمال تلال تبرسق ، وهى من الحجر الجيري ، وإلى جنوب
الوادي معارج تونس الوسطى ، والغربية ، وهى تلال مدورة من الحجر
الجيري ، ثم سهول عظيمة وهكذا ، وهذه المعارج امتداد جبال الأطلس
في الجزائر. ويغطي هذا التل المرتفع غابات من صنوبر حلب وشجيرات نامية
ومراع عظيمة ، ولذلك تطيب فيه الحنطة . أما ناحيته الجنوبية الغربية
فأكثر جفافاً من نواحيه الأخرى ولا يطيب فيها إلا الشعير . وهذه
الناحية بالذات وبخاصة تجاه حدود الجزائر أغنى نواحي تونس بالمناجم .
وتصب أنهار تونس في خليج تونس وهى فروع مجردة ونهر مليان .

وتقوم إلى الجنوب من التل المرتفع أبرز الحدود الجبلية ، وتمتد هذه
الجبال التى هى بمثابة العمود الفقرى لتونس من جوار تبسة إلى جبل زغوان
وجبل الرصاص و بوقرنين . على أن هذه الجبال لا تعوق الاتصال بالجنوب
فهو ميسر بفضل ممرات أو دروب أشهرها مجاز قصور سبيبة الكبيرة
ومسائل المنحدرات الجنوبية مثل وادى مَرْجُولْ وزَرْوْد والخطب تفيض
في غير مواسم وبغير انتظام في الأخبات السبخة في إقليم الفيافي الكبير
الذى يمتد من قَفْصَة ، ولا تقطعه إلا تلال قليلة جيرية متوسطة الارتفاع .
ويغطي هذه الفيافي في الغرب الخلفاء أو الشيبة وتغطيها من ناحية الشرق
أشجار السَّلم ثم تنحدر شيئاً فشيئاً حتى أحراج الزيتون على ساحل صفاقس ،
ومع ذلك ففي هذه الفيافي مزارع شاسعة وبقاع صالحة للرعى ، وليس بها
من البلاد ، إذا استثنينا القيروان ، إلا ما يقوم عند رؤوس الممرات من

جبال تونس . على أن هذه الفيافي تتغير طبيعتها صوب الجنوب فتصبح كالصحراء لندرة المطر ، وتنتهى وراء قفصة أرض غنية برواسب الفوسفات عند غور الشطوط وواحتى الجريد ونفزاوة وهنا تبدأ الصحراء الكبرى .

وشبه جزيرة رأس أدار المشهورة على الساحل الشمالى الشرقى ، حيث أفلحت مزارع مشمرة ، وعلى امتداد جبال تونس ، وهى بين خليجى تونس والحمّامات ، وتتصل سهولها التى على الساحل بمرى زغوان وقرنبالية ، وإلى الجنوب من أحراج البرتقال فى نابُل والحمّامات وسهل سوسة وفيه وديان ما زال مأوها وافرأ يكفى بزيتونه وغلاته الأخرى السكان الذين تكتظ بهم القرى الكبيرة الحصينة . والساحل مستقيم لا تبرز منه إلا شبه جزيرتين صغيرتين هما المنستير والمهدية .

ويبدأ الساحل عند رأس كبوديا فى مستوى الجور تقريباً ثم ينعطف إلى الداخل فيُخلف فى جون صفاقس جزر قرقنة ويفصلها عن الشاطئ بطائىح ، ثم يسير خليج قابس وفيه إسفنج كثير . وأحراج النخيل فى قابس عند نهاية الخليج ، وبين هذه الأحراج وبين واحة الحمة المتاخمة للشطوط يمر يصل سهول تونس الوسطى أو الشرقية بسهول الساحل الجنوبى الأقصى ، وهذه السهول هى : سهول أرث ، وبالقرب منها جزيرة جربة الكبيرة المستوية الخضراء ، وسهول جفرة التى تتاخمها البحيرات . ومع ذلك فثم أحراج زيتون زاهرة حول جرجيس وبين جردان .

تاريخها

قدم غزاة العرب براً من الجنوب الغربي ففتحوا ما يعرف الآن بالساحل التونسي ، وقد اقتضاهم هذا الفتح قتالاً شاقاً مع سكانه من البربر وعمال الروم دام حوالى نصف قرن . وكتب على المسلمين فى شمالى إفريقيا أن يصطدموا بالروم كما اصطدموا بهم فى المشرق ، على أن الأحوال فى ولاية إفريقيا كانت فى منتصف القرن السابع الميلادى جدّ مواتية للفاطميين الذين غلبوا عليهم ، وقد مزق الخلاف الدينى أوصال الجماعة المسيحية فى قرطاجنة ، وفصل عن بوزنطة المتمسكين بأهداب السنة المسيحية ، وكان سلطان الإمبراطور يخف شيئاً فشيئاً على الولاة فأخذوا ينزعون إلى الاستقلال واضطروهم ذلك إلى طلب العون من شيوخ القبائل ، فأفادت القبائل من هذا الموقف ، وألقت عن كاهلها على الأيام كل أثر لسلطان الروم ، حتى إذا جاء الفتح الإسلامى كان جنوب ولاية إفريقيا مستقلاً عن قرطاجنة أو يكاد . وغزا العرب هذه البلاد غزوتين بينهما ثمانية عشر عاماً ، على أنهما لم تكونا فتوحاً بالمعنى المفهوم ، وإنما كانتا غارات مهدت الطريق لحملات أخرى أحسن نظاماً وأكمل عدة تم بها فتح البلاد . ومن المصادفات العجيبة أن المغيرين ألفوا إفريقيا البوزنطية فى الغزوتين على

أبواب محنة سياسية : ففي عام ٦٤٧ م كان البطريق جريجوريوس قد انفصل وشيكا عن الإمبراطور واستقر به المقام بين البربر لما دهمه والى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند سُبَيْطَلَة وقضى عليه ، ثم شرع في اكتساح بلاد الجريد ، وفي عام ٦٦٥ م كان أهل قرطاجنة قد جاهدوا الإمبراطورية بالعداء مخلفين في ذلك ظن الناس جميعاً عند ما ضرب معاوية بن حديج إفريقية وغزا جلولا .

وإنا لنسأل هل كان حكم المغرب منوطاً بوالى مصر عند ما حل عام ٦٦٧ م ؟ الواقع أن الفتح الحقيقي لم يتم إلا بين عامي ٦٦٩ و ٧٧٠ م ؛ وقد تميز بانتصار عقبة ابن نافع وبناء مدينة القيروان ، وكان هذا تاريخ استيلاء العرب على إفريقية والتمكين لهم فيها ، وفاتحة دخول قبائل البربر في الإسلام . على أن أهم هذه الحوادث جميعاً هو تشييد هذه المدينة الجديدة ، وهي حاضرة من حواضر المسلمين ودار للصناعة ومحط للقوافل وسوق للتجارة . وقد رفع أهل هذه المدينة منذ ذلك الوقت قواعد مسجدها ومدوا أرباضها في السهول المواجهة لنجد تونس الوسطى التي ظل يحميها خط من حصون الروم .

وعاد عقبة عام ٦٨١ م بعد أن انقضت ولاية أبي المهاجر ، ولا نعرف من أخبار هذا الوالى إلا القليل . وحدث بعد عامين أن كان عقبة راجعاً من غزوة له فسقط في الزاب أمام تهودة صريع فتنة شديدة قام بها الأهلون في وجهه . وقد ناصر الروم كُسَيْلَة رأس هذه الفتنة ، وظل هذا

الرجل أعواماً طويلة أميراً على دولة بربرية مترامية الأطراف ، ناهضت غارات العرب الجديدة وقاتلتهم أشد قتال ، وسقط كسيلة نفسه في حومة الوغى بناحية سبيبة عام ٦٧٨ م . ويقال إن زهير بن قيس البلوى كان قد وفد عليها في ذلك الحين .

ولم تسمح الأحوال في داخل الدولة الأموية باستئناف الفتح إلا عام ٦٩٣ م ، وفيه خرج حسان بن النعمان في جيش عدته أربعون ألف مقاتل لغزو إفريقية ، ثم تقدم مسرعاً صوب الشمال للقضاء على الروم قبل أن يرجع لقتال بربر « أو راس الأشداء » واستولى على قرطاجنة عام ٦٩٥ م ، ولكنه فقدوها وهزمه البطريق يوحنا ثم هزمه البربر في سهول باغاية بقيادة الكاهنة وهي شخصية أسطورية ، فرجع إلى برقه ثم هاجم قرطاجنة في العام التالي بحراً وبراً ، فاستولى عليها وثبت أقدامه فيها ، وفي عام ٦٩٨ م انتزع العرب من البربر والروم جميع ما يعرف الآن بتونس تقريباً ، واستطاع حسان أن يشيد تونس ، واستولى خلفه موسى بن نصير على زغوان ثم قاد بربر إفريقية لغزو المغرب . .

وتمكن معظم الروم في إفريقية من الهرب بحراً إلى صقلية ومالطة خاصة ، والظاهر أن غالب السكان الذين بقوا في البلاد بادروا إلى الدخول في الإسلام ، اللهم إلا جماعات قليلة من النصارى « الأفاريق » أو اليهود . على أن بربر إفريقية قد نزعوا إلى الاستقلال حتى بعد إسلامهم ، شأنهم في ذلك شأن بقية أقطار شمالي أفريقية ، وحاولوا في عدة مناسبات أن

يستعيدوه وتذرعوا في ذلك بأيسر الأسباب وهو الزندقة ، فكان القرن الثامن كله فتناً ؛ وقد استعين بمذهب الخوارج الاشتراكي لإثارة أهل البلاد على العرب الحاكمين ، كما كان هذا القرن حافلاً بفتن الجند العرب الذين كانوا يسارعون إلى الشغب والخروج على النظام .

وتمكن حنظلة بن صفوان من إخماد فتنة عكاشة الصفرى ، ولكنه أجبر على الفرار إلى الشرق عند ما استولى الثائر عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على القيروان . وعجز آخر الأمويين عن استعادة هذه الولاية النائية التي كانت بسبيل الخروج من أيديهم . ورأى العباسيون أن الأندلس بمنجاة من سلطانهم فقصر واهمهم على استعادة إفريقية من أبى الخطاب الإباضى ، واسترجع قائدهم محمد بن الأشعث القيروان وعمر أرباضها . وأقام فيها بلى أمورها ، ولكن حكمه لم يدم طويلاً ، فقد نqm جند العرب عليه وأجبروه على الرحيل . وعجز الأغلب بن سالم التميمى عن الثبات للمنتقذين من المضرية ، وقتل في فتنة عام ٧٦٧ ، فسادت الفوضى خمسة أعوام سوياً .

وتوارث حكم إفريقية من عام ٧٧٢ إلى عام ٧٩٤ م بنو المهلب ، وهم دويلة من عمال الخلافة يمانية الأصل ، نجحت بعض النجاح في إقامة النظام ونشر الأمن في ربوع البلاد . وتخلص يزيد بن حاتم يعاونه أربعون ألف جندي من أبى حاتم الإباضى ، وعمر مسجد القيروان الجامع عام ٧٧٤ م ونظم أهم طوائف المدينة . وقضى ابنه داود على حلف وفرجومة البربرى ، وتمكن أخوه وخلفه روح من الاتفاق مع ابن رستم الإباضى صاحب

تبهرت . وقد قضى هذا الاتفاق على نزعة التمرد بين بربر إفريقيا . ولم يعد يهدد أمن البلاد إلا جند العرب وحدهم ، فقد حل بها ، بعد وفاة الفضل آخر بنى المهلب ، عهد سادته الفتن وسفك الدماء ، فأنفذ الخليفة العباسي إليها القائد هرثمة بن أعين ، فردها إلى طاعته وبنى رباط المنستير . وخلف هرثمة محمد بن مقاتل العكي فأثار جند تونس التيمية بسوء تدبيره وضعف حيلته فعزلوه في أكتوبر عام ٧٩٩ م . وفي هذا الوقت ظهر إبراهيم ابن الأغلب فجأة وناصر العباسيين في ولاية الزاب ، وكان ابن عاملها ، وقد قتل عام ٨٦٧ م ، ورد ابن مقاتل إلى القيروان ؛ واستمع هارون الرشيد لناصحيه فجعل إبراهيم « أمير » إفريقيا مكافأة له وتوطيداً لأركان الحكم في البلاد ، وظل السلطان في بيته أكثر من قرن بلا انقطاع .

وقد أحدثت دولة الأغالبة أثراً بالغاً في تونس . وكان الأمراء يتبعون الخلافة في الظاهر ولكنهم كانوا في الواقع مستقلين عنها يتوارثون الحكم فيما بينهم ، فجنحوا إلى السلم والنظام والتوسع . بيد أن التيمية في تونس لم تهدأ نائرتهم ، وكان إبراهيم نفسه تميمياً ، ولكنه اختلف مع هؤلاء الجند من مضر ، وقد برموا بأولى الأمور سواء أقربت ديارهم أم بعدت عن العباسيين ، الذين قربوا اليمانية أعداءهم القدماء . فاضطر إبراهيم إلى الاعتماد على جند بينهم كثير من الأعاجم الوافدين من خراسان ، وكان حرسه حديث النشأة من الزنج يعتصم بمحسون القصر القديم أو العباسية التي أقامها على بعد فرسخ من القيروان . وفي عهده أخذت تنتشر الحصون المعروفة بالحارس على

حدود الساحل الشرقى . ولما توفى عام ٨١٢ م ، عادت الفتنة إلى طرابلس . واشتهر ابنه زيادة الله بنشاطه وقسوة قلبه ، وسرعة بادرته ، فوجد له منافساً قويا هو منصور الطنبدى الذى أوشك أن يقضى عليه ، وخرجت البلاد الشمالية كلها بما فيها تونس عن طاعته أعواماً ، بيد أن نفحة من نفحات عبقريته هدت به إلى ما فى الجند المشاغبيين من طمع وحمية فاستنفرهم إلى جهاد صقلية فأقلعوا من سوسة يهزم الحماس ، تحت إمرة القاضى المشهور أسد بن الفرات . واستولوا على بلرم عام ٨٣١ م ، ثم على مسينا بعد اثنتى عشرة سنة . وقد شيد زيادة الله رباط سوسة عام ٨٢١ م ، واستطاع أن ينصرف إلى أعمال السلم ومنها بناء المسجد الجامع فى القيروان . وتأثره خلفه فتوسع فى إقامةبنى . وشيد عام ٨٥٠ م مسجد سوسة الجامع ومسجد صفاقس ، ونحن نخص بالذكر الأمير أحمد الذى أقام الأسوار حول هاتين المدينتين ، وبنى « صهرنج الأغالبة » وهو الصهرنج الكبير الذى يزود القيروان بالماء .

وفى عام ٨٧٤ م خلف ابراهيم الثانى ، آخر الأمراء العظام فى هذه الدولة ، أخاه محمداً ، وقد كنى بأبى الغرانق لكلفه باصطيادها ثم هجر القصر القديم إلى قصبة جديدة جعلت فيها دواوين الحكومة : وهى رقادة التى لا يزال موضعها معروفا على مسيرة خمسة أميال جنوبى القيروان . فلما مات ثارت تونس وفتحت عنوة وتردد الأمير عليها ، ونقل عاصمته إليها لى يرقب أحوالها بعين ساهرة . وتميزت سياسة الأمير فى الخارج بحوادث

جسام ، فواجهت البلاد أول الأمر من ناحية الجنوب الشرقى غارات
العباس بن أحمد ، ابن أول أمراء البيت الطولوني ، ذلك أنه لم يقطع أباه
وخرج على رأس حملة من مصر وسار إلى طرابلس عام ٨٨٠ م يريد فتح
إفريقية . ولكن بربر نفوسة وقفوا بينه وبين طرابلس ، وجاء إبراهيم في
الوقت الملائم واستولى على أموال الطولونيين فساعد ذلك على تحسين الحالة
المالية للبلاد ؛ بيد أن ذلك لم يدم طويلاً لأن الأموال لم تملأ الخزائن التي
استنزفتها الفتن والثروات ثم البذخ والاسراف ، وألحت الحاجة على الحكام
فاشتطوا في طلب العبيد والخيول من سهل جمودة فاندلعت فتنة جائحة ! إلا
أن فتح صقلية تم بالاستيلاء على سراقوسة عام ٨٧٨ م وتاور مينا عام ٩٠١ م ،
وشكا أهل تونس من إبراهيم فصدع لأمر الخليفة وتنازل لوالده عبد الله
ومات مجاهداً عند كوسنزة من أعمال كلابريا في أكتوبر من العام نفسه .
وكانت الفتنة الدينية التي اجتاحت إفريقية بعد ذلك في مهداها بالمغرب ،
وكان بربر الجنوب جميعاً من الإباضية ، وتمتد منازلهم من أوراس إلى جربة
وطرابلس ، أما بربر نفوسة فكانوا يقطعون الطريق الذاهب إلى الشرق
جنوبي قابس ، وذلك قبل أن يعمل إبراهيم الثاني السيف في رقابهم . بيد
أن مذهب الخوارج لم يحل دون غلبة المذهب السني في الجزء الأكبر من
البلاد وظهور جماعة من مشاهير الرجال . وقد بلغت المناظرات في مسائل
الفقه ذروتها أيام الأغالبة ، وفي ذلك العهد قامت المذاهب المختلفة وجمعت
أهمها كتب السنة ، وقد ظهر في هذه الأثناء اثنان من تلاميذ ابن القاسم

فقيه المالكية المشهور في مصر، هما : أسد بن الفرات الذي ولد لأسرة خراسانية وتوفي في صقلية ٨٢٨ م ، وتلميذه سحنون الذي ولد في بلاد الشام لأب من مرتزقة الجند وولى عام ٨٥٠ م قضاء القيروان فنصر المذهب المالكي . ولا تزال مدونة ابن الفرات عمدة يرجع إليها ، وظلت المالكية المذهب الغالب في تونس وإن ظهر عليها أحياناً بعض المذاهب الأخرى . وجدير بنا أن نلاحظ أن أشهر العلماء والمذاهب كان شرقي المنبت ، كما وفد الداعي أبو عبد الله عام ٨٩٤ م من المشرق على قبائل كتامة في إكجن ليدخلهم في شيعة عبيد الله المهدي .

وأنفذ الأغلبية عام ٩٠٢ م حملة على كتامة فبلغت غرضها بعد جهد وازداد خطر الشيعة أيام زيادة الله الذي قتل أباه عبد الله المعتزلى ، وفي عام ٩٠٥ أسرع المهدي بالقدوم من الشام إلى شمالي إفريقية وانتظر في سجلماسة اللحظة المواتية للمجاهرة بدعوته ، وكان داعيته الخالص يفتك بجيش الأمير وأخذت الحوادث تجري سراعاً . وحاول زيادة الله عبثاً أن يحاكم الشيعة أمام مجمع من الفقهاء في تونس وطلب المعونة من العباسيين ؛ وسقطت باغاية في ربيع عام ٩٠٧ م ، وفي شهر مارس عام ٩٠٩ فرّ زيادة الله إلى بغداد بعد سقوط الأربس ودخل الداعي رقادة على الرغم من العداوة التي أسرها علماء السنة . وفي شهر ديسمبر من السنة نفسها تلقى المهدي بنفسه فروض الولاء من الأهلين في القيروان . وهكذا تأسست في إفريقية بفضل الجند المشاة من بدو كتامة الخلافة الفاطمية العبيدية الشيعية ، فأحدثت انقلاباً

في الأحوال السياسية في شمالي إفريقية بأسره قبل رجوعها إلى موطنها القديم في المشرق .

وكانت الدولة الجديدة تمد بصرها من أول الأمر إلى مصر ولم تنقطع عن إنفاذ الحملات تمهيداً لفتحها حتى وطدت أقدامها فيها . وقد قتل عبيد الله في يناير من ٩١١ م أبا عبد الله وهو الذي ثبت له الملك ، مثله في ذلك مثل المنصور الخليفة العباسي الذي قضى على داعيته أبي مسلم . وقد سار ابنه على رأس جيش عام ٩١٣ م وفتح الفيوم واستولى ابن آخر على مدينة الأسكندرية فلما توقف الفتح ناحية الشرق فكر المهدي في تأسيس عاصمة له في إفريقية على البحر . فابتنى المهدية لتخرج منها الأساطيل لمهاجمة المشرق ، وللتحصن فيها من هجمات البربر من داخل البلاد ، وقد أنفذت عام ٩١٩ م حملة أخرى استولت على الأسكندرية ، واحتفظت بها أمداً وجيزاً ، وكان انتصار هذه الخلافة في الغرب مبيناً ، فقد قضت على ثورة صقلية وأدخلتها في طاعتها ولما توفي عبد الله في مطلع عام ٩٣٤ م كان المغرب بأسره قد دان للفاطميين وقضى على دولة الأباضية في تيهرت والإدرسية في فاس وصفوية سجلماسة واعترفوا جميعاً بسلطان الفاطميين .

واستطاع أبو القاسم نزار القائم بأمر الله أن يوطد سلطانه على الدولة المترامية الأطراف التي ورثها . والواقع أن أسطوله تمكن من نهب جنوة عام ٩٣٥ م ، بيد أنه لم يكن لهذه الغارة شأن ، ولم يكن منه إلا أن استسلم للثورة الشديدة التي قاد لواءها النكارى أبو يزيد بن كيداد الإفرائي

صاحب الحمار الذى جهر بأنه « شيخ المؤمنين » وقاد باسم الدين هوار
شرقى أوراس لمهاجمة مدن إفريقية . ونهب البربر الخوارج عام ٩٤٤ م
باجة والأربس والقيروان وسوسة ، واستولوا على تونس وحاصروا الخليفة
بالمهدية بعد أن زاد عددهم بمن انضم إليهم من بربر نفوسة والزاب . ومات
أبو القاسم فى أخرج الأوقات عام ٩٤٦ م . واستطاع ابنه اسماعيل المنصور
أن يعيد الأمور إلى نصابها يؤيده أهل البلاد الذين أثارتهم مظالم الغزاة ،
وتنصره كتامة التى ظلت موالية له . وهزم أبو يزيد فى وقائع دموية
متعاقبة ورأى بعينيه تفرق رجاله ثم سقط فى يد أعدائه مشحناً بالجراح ،
فى الموضع الذى شيد فيه ابن حماد قلعته عام ٩٤٧ م .

فلما انتهى هذا العصر المضطرب أعقبه عصر آخر يسوده الأمن والرخاء .
وبادر المنصور إلى إظهار سلطانه بتشديد مدينة صبرة الزاهرة التى عرفت
بالمناصرة وسرعان ما أخذت جارتها القيروان . وازدهرت التجارة
والصناعة وكان القائد رشيق يحجوب البحر ملقياً الرعب فى قلوب النصارى .
وجاءت اللحظة المنتظرة من زمن طويل عند ما اعتلى المعز عرش الخلافة
عام ٩٥٣ م . فقد دان له المغرب بأسره على الرغم من شبوب الفتن بين الحين
والحين لمناصرة الأمويين أصحاب قرطبة . وكانت غارات الأندلسيين على
سواحل سوسة وطبرقة ثارات قديمة ليست بذات خطر . وقوى الأمل
فى فتح مصر وكان قد ضعف بموت كافور الإخشيدي فاحتل جوهر الصقلي
مدينة الفسطاط فى يولييه عام ٩٦٩ م باسم الخليفة المعز ، مثله فى ذلك مثل

أبي عبد الله الذي احتل القيروان لمولاه المهدي ، كما احتل أبو عبد الله مدينة دمشق في العام الذي يليه . وأسس مدينة القاهرة لمولاه ثم دعاه إلى اللحاق به ليقيم في وجه القرامطة . فلما فرغ الخليفة الفاطمي من القضاء على آخر ثورات زناتة ، وكان يتشبه بالمشاركة في رسوم الملك والخلافة ، تجهز الرحيل في أغسطس ٩٧٢ م فبلغ القاهرة في العاشر من يونيو ٩٧٣ م وأصبحت هذه المدينة بذلك قسبة دولته .

وعهد المعز قبل رحيله بحكم إفريقية (ماعدًا صقلية) إلى الأمير البربري بلسكين ، وكان أبوه زيري بن مناد عدواً لدوداً لقبيلة زناتة الثائرة ، وقد أعان العبيديين دائماً برجاله من صنهاجة . وقد نجحت هذه الخطة التي رمت إلى حكم البلاد بأمراء من البربر نجاحاً كاملاً . وكان بنو زيري يتسلمون كتاب الولاية من القاهرة ، وفي أيامهم عم الرخاء في إفريقية وكثر الخير والزاد بفضل ارتقاء الزراعة والصناعة والتجارة مع العالم الخارجي . وكانت المحافل الرسمية غاية في الأبهة والبذخ . ونهضت دراسة الفقه والطب ، وكان قد برز فيها أيام الفاطميين رجال مشاهير كما برز في الأدب الشاعر ابن رشيق ، واجتذب يهود القيروان نفرأً من مشاهير التلموديين كما نبغ منهم كثيرون .

ولم تتأثر هذه الحضارة الزاهرة بفتن زناتة المغرب الذين استفحل أمرهم مع الأيام وجهروا بولائهم لقرطبة كما أنها لم تتأثر بانفصال حماد الذي أسس في عهد أخيه باديس بن المنصور عام ١٠٠٨ م دولة مستقلة في قلعته المشهورة .

بل كان الأمر على العكس من ذلك فقد بلغت الدولة أوجها فيما يظهر أيام المعز ابن باديس في النصف الأول من القرن الحادى عشر، بيد أن هذا المعز كان كثير الخيلاء، وقد وقره خلفاء القاهرة وبجمله أهل المغرب بأسره، ولكنه اقترف خطأ عظيماً ببعث الفتن الدينية القديمة التى كان يتذرع بها سكان شمالى إفريقيا للانتفاض على حكاهم المشاركة. واجتمع حوله مالكية القيروان وتوجه بولائه إلى العباسيين فى بغداد وانتهى به الأمر إلى الجهر بعصيان الفاطميين على مراحل استغرقت العهد إلى عام ١٠٥٠ م.

وكان انتقام الخليفة الذى انتقض عليه انتقاماً شنيعاً، واستشعر وزير مصر الفاطمى أن الإهانة موجهة إليه فأنفذ إلى الوالى الثائر جماعات من أعراب الهلالية النهاية وكانوا يسكنون الصعيد شرقى نهر النيل. وبلغ بنو رياح أول العرب الهلالية شمال إفريقيا عام ١٠٥١ م فأحدثوا انقلاباً فى تاريخ سلطنة تونس، وأسرع المعز إلى تحصين القيروان فلم يجده ذلك نفعاً وهزم عندها مرتين. وفى عام ١٠٥٧ م دهمه البدو ونهبوا أغوار البلاد جميعاً، فانتقل سراً إلى المهدية فى حراسة أمراء من العرب اضطر إلى الإصهار إليهم وتزويجهم من بناته. وقد أحدث هؤلاء الغزاة وعدتهم مئات الألوف انقلاباً كبيراً فى شمالى إفريقيا من حيث الاقتصاد والسياسة والسلالات. فقد رد البربر واستعربت البلاد وغلبت عليها البداوة واضطرب الأمن فهلك الزرع وتقوض سلطان الحكومة المركزية وسقطت بعض المدن الكبيرة فى يد العرب واستقلت غيرها بأمر نفسها يحكمها أمراء

من أهل البلاد أو عمال جهروا باستقلالهم وكان منهم من قدم فروض
الولاء إلى بني حماد أصحاب القلعة ليحتموا بهم . وهكذا تأسست دويلة
بني خراسان في تونس ، وبنو الورد في بنزرت وبنو جامع في قابس وبنو
الزند في قفصة . أما في الوسط فقد عمت الفوضى والاضطراب .

واستطاع بنو زيري على الرغم من كل هذه المصاعب أن يحتفظوا
بالمهدية ولم يكن في أيديهم إلا الساحل الممتد بين سوسة وقابس . وخلف
تميم أباه المعز فحاول عبثاً أن يستعيز بعض ما فقدته أبوه فاصطاح مع
ابن حماد ولم يوفق في هجومه على تونس وأصبح محصوراً في المهدية لأمناص
له من رد هجمات العرب وصد النصاري الذين تجدد عداؤهم له . وقد
سقطت المهدية عام ١٠٨٧ م بتحريض البابا في يد اليزيد والجنويين
فاضطر تميم إلى تعويض المنتصرين وإعفاء تجارتهم من المكوس .
واعترف يحيى بن تميم وبعده ابنه على بسلطان الخلفاء في القاهرة وأيديتهما
قبائل العرب فأحرزا بعض الانتصار في البر والبحر حتى دهمها عدو لم
يكن في الحسبان . ذلك أن النورمان كانوا قد غزوا صقلية ومالطة وشرعوا
يتدخلون في شئون إفريقية . وفي عام ١١١٨ م دبت الفرقة بينهم وبين هذا
الأمير الزيري فاستعان بالمرابطين من أقصى المغرب واضطر الحسن بن علي
أول الأمر إلى الاتفاق مع روجر صاحب صقلية وقبول حمايته ليوقف في
وجه بني حماد أصحاب بجاية ، بيد أن هذا لم يمنع أمير البحر جورج الصقلي
الأنطاكي من إجلائه عن المهدية عام ١١٤٨ م وبسط روجر الثاني ثم وليم

الأول لونا من الحماية السمحة على جربة والمدن الساحلية من سوسة إلى طرابلس وكان غرضهم في ذلك تجارياً ، ولكن هذا لم يدم طويلاً فقد ثار النصارى وسرعان ما استعادوا حريتهم و بقيت سوسة والمهدية وحدهما في يد الكفار إلى عام ١١٦٠ م عند ما استولى عليهما عبد المؤمن الموحدى الذى جاء من المغرب الأقصى وهزم عرب إفريقية عام ١١٥١ م ، وكانوا قد اتحدوا في وجهه بزعامة الأمير المعز بن زياد الرياحى ، ثم قضى على كل مقاومة اعترضت سبيله واستولى على الحصون وأعمل السيف في اليهود والنصارى فأعاد بذلك الوحدة السياسية إلى شمالي إفريقية خمسين عاماً أو تزيد .

ولم تذق إفريقية طعم السلام على الرغم من نفوذ خلفاء مراكش أصحاب السلطان الجديد فيها ، ولم يستشعر الناس سلطان الموحدين لأنهم أقاموا من قبلهم عاملاً في مدينة تونس يختار من أقارب الخليفة الأدنى . وسرعان ما ظهر عجزه عن إعادة النظام إلى الولاية التى كان العرب دائماً يتهددونها إلى جانب ما أحدثته جماعات التركمان من اضطراب بزعامة قراقوش الأرنؤى . وشخص يوسف ويعقوب المنصور على رأس الجند فى عامى ١١٨٠ م و ١١٨٧ م بيد أن ذلك لم يكن كافياً ، فقد كان يحى الم رابط حليف قراقوش سعيد الجدد ، فقد انفصل عن حليفه وغلب خصمه ابن عبد الكريم الرغراغى على أمره واستطاع أن يسطط سلطانه من قاعدته فى الجريد على ولاية تونس بأسرها . واحتاج الأمر أن ينفذ الخليفة الناصر حملة يقضى بها على الم رابطين وذلك

بزعزعة سلطان يحيى ، وإقامة حكومة قوية على الولاية عهد بها أول الأمر إلى الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص فبلغ الحفصيون بذلك أول مرتبة من مراتب السلطان

وولى أمير آخر من بنى حفص على تونس منذ عام ١١٨٤ م وقد انحدر هذا البيت الحفصى من أمير بربر هنتاتة ، من قبائل مسمودة التى كانت تعيش فى مرا كش ، وكان له شأن عظيم بين أتباع المهدي بن تومرت ، وقد مكثوا لأنفسهم فى إفريقية عام ١٢٢٦ م باستعمال أبي محمد عبد الله الذى خلعه بعد ذلك بعامين أخوه أبو زكرياء . واستقل أبو زكرياء بالأمر شيئاً فشيئاً ، ولكنه قنع مع ذلك بالإمارة ، وكان المؤسس الحقيقى للدولة التونسية العظيمة التى حكمت ثلاثة قرون ونصف قرن على الرغم من الأحداث التى تقلبت عليها . وقد استمسك الحفصية دائماً بسنة الموحدين ، وكان نظام الدولتين فى الحكم متشابهاً إذا استثنينا بعض الفروق الصغيرة ، بيد أنه لما نادى مكة بثنائى أمراءهم المستقلين ، (ابن أبي زكرياء) ظلت تحيط به بطانة قوية من الموحدين كانوا دعامة الدولة والجيش وكانت دواوين الحكومة تدرج فى ثلاثة أقسام كبيرة : الجيش وبيت المال والقضاء . وكان عمال الولايات يختارون عادة من أقارب الخليفة الأدين . بيد أن من الخطأ أن ننكر ما كان لكثير من الأندلسيين من شأن فى إدارة البلاد وحياتها العقلية بعد أن أجلاهم النصارى عن الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى . ولما رغب بنو حفص فى نشر ألوية السلام على إفريقية كانت تواجههم

دائماً خلافات الأعراب فيما بينهم ، وما أثاروه من فتن وقلاقل فأضعف ذلك من سلطان الحكومة المركزية إبان القرن الرابع عشر الميلادي .

وكان لهذه الدولة عهود زاهرة حتى وفاة الخليفة المستنصر عام ١٢٧٧ م . ذلك أنهم بسطوا سلطانهم على الرغم من الثورات التي كانت تنشب بين حين وحين من طرابلس إلى صميم بلاد الجزائر . ومكنوا لأنفسهم في المدن الهامة . وامتد نفوذهم إلى ما وراء شمالي إفريقيا فلفت أنظار أسبانيا وأوربة المسيحية . وفي هذا العهد توطدت العلاقات التجارية المنظمة مع برشلونة ومرسيليا وجنوه وبيزا وصقلية والبندقية : فعقدت معاهدات تنظم التجارة والملاحة وأنشئت في تونس قنصلية وزادت جباية المكوس فدفعت تونس الجزية إلى صقلية ثم إلى أرغونة .

وصفوة القول أن الحكم في إفريقيا كان أوطد وأزهر مما كان عليه في القرنين السابقين ، وآية ذلك نهضة علوم الفقه وفن العمارة . وقد تعاقبت على البلاد فتن أثارها نزوع بعض الأمراء إلى العرش ممن تربطهم بالخليفة قرابة صحيحة أو مزعومة .

ومما يبعث على الأسف أن هذه الفتن أضعفت سلطان الخليفة وأوهنت الروابط القائمة بين رعاياه . وولى الحكم من أعقاب المستنصر أمير واحد هو أبو عصيدة وبوفاته خرج الحكم من هذا الفرع . فحكم أخ ثالث هو أبو حفص ثم ابن عم له هو أبو يحيى بن اللحياني . وقد استقر السلطان آخر الأمر في أعقاب ابن آخر من أبناء أبي زكريا هو أبو إسحاق إبراهيم .

وانفصمت أواصر الوحدة بين بني حفص زماناً بخروج بجاية عن طاعتهم وقيام دولة مستقلة فيها ثم عادوا إلى ما كانوا عليه من اتحاد . وكانت جربة قد بقيت في يد النصارى مذ فتحتها روجر صاحب لورية فأخذها الحفصيون منهم ووقفوا في وجه بني عبد الواد بفضل تحالفهم مع المرينيين الذين قويت شوكتهم . بيد أن هذا الحلف كان ينطوي على خطر دفين ، فقد استغل أبو الحسن السلطان المريني الواسع الأطماع الفتن الداخلية وبادر إلى فتح إفريقية ، واستقر هو وفتحهاؤه ورجال بلاطه في مدينة تونس . ولم يكن ليعيد بني حفص إلى السلطان غير فتنة عربية موفقة . وقد حدثت هذه الفتنة عام ١٢٥٠ م بيد أن جيوش أبي عنان المريني استطاعت بعد سبع سنين أن تحتل تونس مرة أخرى ، ولم تثبت أقدامهم فيها طويلاً .

وفي هذا العهد ، أيام أبي إسحاق إبراهيم ظهر سلطان الحاجب الدساس ابن تافراكين ، ولكنه لم يوفق تمام التوفيق فيما بذل من جهد لإعادة وحدة هذه الدولة فقد خرج جنوبها خاصة عن طاعة الخليفة وظهرت دويلات مستقلة في تلك الربع فحكم بنو يملول في توزر وبنو الخلف نقطة وبنو مكي في قابس وبنو ثابت في طرابلس ؛ إلا أن أبا العباس (١٣٧٠ م - ١٣٩٤ م) الذي بدأ حياته السياسية في قسنطينة أعاد إلى الدولة مجدها ، فكان ينفذ الحملات الواحدة بعد الأخرى حتى دان له الثوار بالطاعة ، وفي عهده أرادت جماعة من الصليبيين الجنوبيين الفرنجة

أن تثار من القرصان الذين جاوز طغيانهم الحد ففشلت أمام المهديّة ١٣٩٠ م .
ونهب ابنه أبو فارس بالأسطول وأنفذ حملة بحرية على مالطة ١٤٢٨ م ؛
وكان لزاما عليه من الناحية الأخرى أن يرد عادية القطلونيين والصقليين ،
وأنفذ حملة كبيرة على جربة ، وأقام الحصون في رأس أدار ورغرف
والحمات لرد غائلتهم ثم استولى على تلمسان .

وكان عهد الحفصيين في القرن الخامس عشر يتميز بزيادة نفوذ الموالي
الذين كانوا يستعملون على الأقاليم والجيش ويعرفون بالقواد . وقد كان الأمير
أبو عمرو عثمان آخر السلاطين المبرزين . وارتبطت تونس بعلاقات
ودية مع أوربة على الرغم من نشاط قرصانها . وأذن للقطلونيين والجنوبيين
بصيد المرجان في طبرقه ، وسمك التون في رأس أدار . أما في الداخل
فقد اتسع سلطان مذهب المرابطين الذي جاء من الغرب وارتقت الزراعة
على الرغم من شغب الأعراب . وسرعان ما ساءت الأحوال بموت عثمان
فحكم البلاد ثلاثة من الخلفاء في غضون أعوام قليلة ثم أخذ نجم الدولة
يافل أيام أبي عبد الله فمزق أوصالها انتفاض القبائل عليها قبل أن تحقيق
بها ضربات الأسباب الذين طاردوا قراصنة الترك في هذه الربوع .

وفي عام ١٥١٠ م جردها يدرونافارو من بجاية وطرابلس ، وفي عام
١٥٢٠ م احتل هيوزده منكاد جربة إلى حين ثم طرد خير الدين
بربروسه آخر الأمر الحسن بن أبي عبد الله من تونس .
ولم يعد الحسن إليها إلا عند ما استولى شارل الخامس على المدينة ،

وأصبح قيلا من أقيالها ، وسلم للأسبان حصن حلق الوادى . وساءت الأحوال فى تونس عندما استولى أندريا دوريا على مدن سفاقس وسوسة والمنستير ثم حلت بالأسبان حوادث خطيرة وخارت عزيمة جند الحسن فذهب يطلب العون من أوربة ولكن ابنه أحمد حميدة انتهز فرصة غيابه وخلعه .

وحاول حميدة ، وكان رجلاً غليظ القلب مقداماً ، أن يستعيد ملك آبائه فلم يفلح . ثم ظهر بطل جديد هو القرصان التركى درغوث ، وكان فى يد الجنوبيين ، ولم يطلقوا سراحه إلا فى مقابل تسليمهم جزيرة طبرقه ، وطرده الأسبان من المهدية عام ١٥٥٠ م إلا أنه استطاع بمهارة أن يفلت من أندريا دوريا فى إبريل من العام نفسه بين ممرات جربة واستطاع من قاعدته فى طرابلس أن يحتل قفصة والقيروان وفيها ترك فرقة من الجند تحت إمرة حيدر باشا . ولما قاد دوق مدينة سالم حملة على جربة هزمه درغوث هزيمة منكرة ثم هلك فى حصار مالطة عام ١٥٦٥ م

واستمرت الحرب بين حميدة وعامل الأسبان على حلق الوادى على الرغم مما عقد بينهما من المعاهدات ، فسهل ذلك على أمير الجزائر على باشا احتلال تونس فوضع فيها حامية من الجند ثم استعاد دون جون النمسوى مدينة تونس من الترك فأعاد سلطان الحفصيين لآخر مرة بتأثير محمد بن الحسن وتعيين سربلونى مشيراً له . واستولت جنود الترك التى جاء بها اسطول سنان باشا من القسطنطينية على تونس وحلق الوادى فوضعوا بذلك

حداً لحكم الأسبان وكان مزعزعاً لا يطول به العهد ، وقضى على دولة
بنى حفص « الوطنية » التي كانت عزيزة الجانب وأصبحت على مر الأيام
لا حول لها ولا قوة ، وكانت عودة حميدة إلى الملك بمثابة صحوة الموت لهذه
الدولة ، فقد بسط سلطانه على فيافي تونس والجريد أعواماً .

أما سنان باشا فقد جعل تونس ولاية تركية ملحقة بالجزائر يحكمها باشا
وذلك قبل أن يعود إلى القسطنطينية ، ثم أصبحت منذ عام ١٥٨٧م تابعة
للباب العالي مباشرة . وكان يقود جيش الاحتلال أغا ، ويتألف هذا
الجيش من أربعة آلاف رجل على رأس كل مائة داعي (داي) . واستبد
الديوان بالأمر وهو الهيئة الحاكمة التي تضم الضباط العظام . فاندلعت
نيران الثورة وانتهت بوضع أزمة الأمور في يد واحد من هؤلاء الدعاة
(الدايات) . وأصبح منصب الباشا في عهد هؤلاء الدعاة منصب شرف
فحسب ، وإن كان يمثل السلطان ، أما الديوان فقد أعيد تنظيمه وقويت
شوكته ، مثله في ذلك مثل طائفة الرعايا أي (طائفة القرصان) . أما من
ناحية الدين فقد كانت الصدارة للمذهب الحنفي .

ويعود الفضل في تنظيم الولاية للداعي الثالث عثمان فقد أصدر مجموعة
من القوانين موسومة بـ « الميزان » واستطاع أن يحافظ على الأمن في البلاد
يعاونه « باي » مهمته جمع الضرائب بقوة الجند في ذورتين كل سنة .
وأشرفت الدولة على القرصنة في البحار وشاركت في غنائمها . ولما طرد
المسلمون من الأندلس عام ١٦٠٩م استقروا في كثير من بلاد تونس مثل

رأس أدار وطبورية ومجاز الباب وتستور وقلعة الأندلس فروجوا سوق
الخضر ونشطت بعض الصناعات كالصبغة وصناعة الجوارب .

وضعف سلطان تركيا على تونس إلى حد أن فرنسا أصبحت تتمتع
بفضل الامتيازات العثمانية بمكانة رفيعة في أرجاء الدولة العلية بأسرها ،
فأنشأت قنصلية لها في تونس ١٥٧٧ م واقتضى الأمر أن أرسلت عام
١٦٠٦ م سفيراً هو ده بريف لكي يتصل مباشرة بأولى الأمر في تونس .

واستعاد يوسف زوج ابنة عثمان وخليفته مدينة جربة من باشا طرابلس .
واتفق في عهده على تسوية الحدود بين تونس وبين الجزائر نتيجة لغارات
الجزائر عليها ، ثم خلفه داع اسمه الأسطى مراد (١٦٣٧ م — ١٦٤٠ م)
وكان قرصاناً جنوباً دخل في الاسلام ، فحصن غار الملح وأسكن فيه جماعة
من أهل الأندلس . ولكن سلطان الدعاة (الدايات) كان آخذاً في الضعف .
ولسنا في حاجة إلى ذكر الدعاة الأربعة والعشرين (خوجه ولاز وغيرهما)
الذين حكموا من عام ١٦٤٠ م إلى عام ١٧٠٢ م لهوان شأنهم ولأنهم
أصبحوا العوبة في يد البايات الذين نجحوا آخر الأمر في القضاء عليهم ،

وحكم الباي مراد من عام ١٦١٢ إلى عام ١٦٣١ م وكان قورسيقيا
يلقب بالبasha ، وقد تنازل في حياته لابنه محمد فأصبح بدوره باشا واعتمد
في حكمه على كتيبة من الصباغية وزعها بين تونس والقيروان والكاف وباجة
وأصبح سيد البلاد دون منازع .

وقد أسس حمودة الدولة المرادية ، فحكم ابنه مراد ومحمد الحفصي وأحفاده

محمد وعلى ورمضان ، فكانت الفتن تهدد سلطانهم . وبلغت هذه الفتن غايتها بمقتل ابن حفيده مراد عام ١٧٠٢ م .

وامتاز النصف الأول من القرن السابع عشر بعودة العلاقات التجارية بين تونس وأوربة ، وبخاصة بينها وبين مرسليليا وليقرنو ، ويرجع الفضل في ذلك إلى تجار النصارى واليهود . واتجرت في المرجان الشركات المرسليلية المؤسسة في رأس الأسود وبنزرت جنوبي طبرقة ، وكانت تربح من تصدير الجلود والحبوب . واتسعت علاقات الولاية بالخارج فشملت أمماً مثل بريطانيا العظمى والأراضى الواطئة . فكانت وحدات من الأساطيل الأوربية في النصف الثانى من هذا القرن تضرب الساحل بقنابلها ، إلى جانب الحملات التى درج فرسان مالطة على القيام بها انتقاماً لأعمال القرصنة الماضية .

وازدهرت البلاد فى الداخل أول الأمر كما يستدل من إقامة المنشآت العامة والمساجد فى طول البلاد وعرضها ، ثم ساءت الأحوال على مر الأيام فى عهد المتأخرين من المرادية حتى استطاعت الجزائر أن تقوم بغزواتها . وأخذت القبائل فى الانتفاض على الحكومة وظلت الكاف فى يد بنى شنوف أمداً طويلاً وقلعة سنام فى أيدي الحناشة وكان جبل وسلات موطن شغب عظيم واجتاح البلاد وباء الطاعون مرات كثيرة فأهلك الناس .

ولما قضى إبراهيم الشريف الذى كثر فى عهده سفك الدماء ، وكانت قد

اجتمعت له لأول مرة ألقاب الباي والداعى والباشا وأغا الجند ، نودى بالحسين بن على تركى باياً على تونس فى العاشر من يولييه ١٧٠٥م فى غضون غزوة جزائرية جديدة ، وهكذا قامت الدولة الحسينية التى لاتزال تحكم البلاد إلى اليوم . وأعاد حسين السلام إلى الربوع وشيد كثيراً من المباني (مثال ذلك ما أنشأه فى القيروان) ، وحاول أن ينظم ولاية العرش لمصلحة ذريته مباشرة فخلعه على باشا يظاھرہ الجزائريون ؛ ومن ثم نشأت مصاعب جديدة استفحل أمرها بفتنة يونس بن على عام ١٧٥٢م . ثم اعتلى محمد بن الحسين العرش آخر الأمر بتدخل الجزائر أيضاً . وحكم على باى ثم ابنه حمودة ففعلا الكثير فى سبيل إصلاح ما فسد من شئون الدولة وإعادة الرخاء إلى ربوعها .

ونشطت التجارة الخارجية كما نشطت الزراعة ، واتسعت علاقات الباي مع الدول الأوروبية على الرغم من قضائه على الجاليات التجارية برأس الأسود وطبرقة ، وأبرمت معاهدات كثيرة كان يوقعها بنفسه . وعينت فرنسا آخر الأمر قنصلاً عاماً لها فى تونس على الرغم من محاربتها إياها عدة مرات . ونشبت الحرب بين تونس والبندقية واستمرت ثمانى سنين (١٧٨٤ — ١٧٩٢م) وأخضع على باى ثوار جبل وسلات ومزق كلمتهم ولكنه عجز عن التخلص من الجزائريين الذين ظلوا مصدر تعب كبير لحمودة ، وأعمل حمودة السيف فى رقاب الانكشارية المتمردين عام ١٨١١م .

وطرأت تغيرات ملحوظة على أحوال السلطنة التونسية إبان القرن التاسع عشر، أولها القضاء على القرصنة والقرصان، وكانت من أهم موارد الدولة، وقد أرغمت الدول الأوروبية محمداً على ذلك نتيجة لمؤتمري فيينا وإكس لاشابل ثم كان احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ م أيام الباي حسين، فأعقب هذا نتائج لم تكن في الحسبان. وقد حاولت تونس عبثاً، مدة نصف قرن للملاءمة بينها وبين الأحوال الجديدة بتغيير نظامها الداخلي وانتهاج سياسة وسط بين التراخي في تبعيتها للدولة العلية والانصراف عن هذه التبعية حيناً آخر وبين السماح للدول المسيحية بالتدخل في شئونها على يد قناصلها، وشجعت بريطانيا سلطان الباب العالي وناوآته فرنسا ولم يبد هذا السلطان إلا في القليل من فرامانات التولية وفي إرسال الجند التونسية إلى القريم عام ١٨٥٥ م لمحاربة روسيا (وقد اشتركت وحدة بحرية تونسية مع الأسطول التركي في واقعة نثارينو عام ١٨٢٧ م) وأخذ بعد ذلك النفوذ الفرنسي والإنجليزي والإيطالي يزداد على مرّ الأيام.. نعم إن خطط فرنسا لإقامة أمراء تونسيين على الجزائر لم تلق نجاحاً. ولكن تونس لم تعد تأخذ الجزية التي كانت تدفعها الدول المسيحية نظير حق الاتجار معها، وتولى أحمد وكان أشبه بالحاكم المستبد المتنور، فالغى الرق ومنح اليهود حرياتهم ونظم «الجيش التونسي» على النسق الأوربي، واختار له مدربين من الفرنسيين، وزار لويس فيليب في باريس في عام ١٨٤٦ م. بيد أن إسرافه الكثير ونفقات بناء دار الصناعة في غار الملح وقصور المحمدية استنزفت موارد

الدولة وكانت جدّ قليلة ، ففرضت ضرائب جديدة وأصدر قانون لاحتكار أشجار الزيتون .

وأدخل ابن عمه محمد (١٨٥٥ - ١٨٥٩ م) ضريبة على الرؤوس مقدارها ستة وثلاثون قرشاً كما أعفيت منها بعض المدن التونسية الهامة ، ولكن أهم حادث في عهده هو إصداره عهد الأمان في ٩ سبتمبر سنة ١٨٥٧م حمّله عليه القناصل ، وأعلن فيه أن أهل تونس جميعاً سواء أمام القانون وفي دفع الضرائب ، كما أعلن حرية العقيدة وحرية العمل والتجارة وحق الأجانب في امتلاك الأرض والعقار . وأصدر أخوه محمد الصادق (١٨٥٩ - ١٨٨٢ م) دستوراً في السادس والعشرين من أبريل عام ١٨٦١م أقره نابليون الثالث ، وبه ظلت السلطة التنفيذية في يد الباي تؤول إليه بالوراثة ، وأصبح مسؤولاً عن الحكم ، وينتقل العرش إلى أكبر أمراء البيت الحسيني يعاونه وزراء يختارهم بنفسه ، وقسمت السلطة التشريعية بين الباي والمجلس الكبير المؤلف من ستين عضواً معينين . أما السلطة القضائية فكانت مستقلة ، وكانت المحاكم تتبع قانوناً تونسياً جنائياً ومدنياً ، أما إدارة الأقاليم فكانت في يد (القواد) يعاونهم (شيوخ) منتخبون ، وجعلت للباي مخصصات ، ولم يعد له حق فرض الضرائب وغيرها . ولكن سرعان ما ساء الموقف على الرغم من هذه الإصلاحات ، وقد أدت السياسة المالية الخرقاء التي انتهجها مصطفى باشا خازن دار من العودة إلى الاستدانة وزيادة الضرائب ، إلى عصيان القبائل تحت راية

على بن غزاهم عام ١٨٦٤ م كما أدت إلى تأليف لجنة مالية دولية (من التونسيين والفرنسيين والإيطاليين والمالطيين) عام ١٨٦٩ م ، وفي يولييه من عام ١٨٥٩ م عطل الدستور ، وفي أكتوبر من عام ١٨٧٣ م خلف القائد خير الدين على دست الوزارة الخازندار الذي عزل من منصبه . فامتاز عهده بإصلاحات جليلة ، ولو أن البلاد لم تصب منها إلا تقدماً يسيراً . بيد أن موارد الدولة كانت قليلة جداً وديونها عظيمة حتى أن اللجنة لم توفق إلى شيء . وكانت إدارة مصطفى بن إسماعيل السيئة هي الضربة القاضية التي أصابت البلاد بينما اشتد التنافس بين قنصلي فرنسا وإيطاليا على الصدارة في الامتيازات الخاصة بالمصالح العامة .

وشجعت بريطانيا وألمانيا منذ مؤتمر برلين عام ١٨٨٧ م التدخل الفرنسي في شئون تونس . وقد سير الوزير جول فرى ثلاثين ألف مقاتل لغزو تونس نتيجة لغارات أهل جبال خمير على الجزائر وغيرها من الحوادث . وبعد عشرين يوماً أرغم الجنرال بريار صادقاً على أن يوقع معاهدة (قصر سعيد) المعروفة بمعاهدة باردو ، دون أن يسفك دماء أو يأبه لاحتجاج تركيا . وقد أعطيت هذه المعاهدة فرنسا حق الإشراف على الشؤون العسكرية والخارجية والمالية للسلطنة التونسية ، وعين وزير مقيم فرنسي يتولى الشؤون بين الباي والحكومة الفرنسية ، وكان القنصل روستان بطبيعة الحال أول من شغل هذا المنصب ، وهكذا بدأت الحماية وإن لم تكن قد أعلنت بالفعل . ثم أصبحت الحماية أمراً واقعاً بعد ثورة الوسط والجنوب تحت إمرة على بن خليفة

والقضاء السريع عليها بواسطة حملة فرنسية ثانية . ووافق الباي بمقتضى
ميثاق المرسى في ٨ يونيه عام ١٨٨٣ م على أن يبدأ بالإصلاحات
الإدارية والقضائية والمالية التي ترى الحكومة الفرنسية نفعها للبلاد .

وتعتبر الحماية الفرنسية فاتحة عهد جديد في تاريخ تونس . ولم تؤثر فيها
منذ أن فتحها المسلمون حادثة كهذه الحماية التي غيرت نظامها وحياة أهلها .
وكان الطابع الأصيل لهذا العهد الإبقاء على نظام الحكم القديم في مظهره
وقد ألبس هذا النظام ثوباً جديداً وزيدت عليه نظم حديثة وظل سائداً
على رغم ما وجه إليه من نقد .

وظل عظمة الباي هو سيد السلطنة الأسمى وصاحب مملكة تونس ،
ولكن صاحب الأمر والنهى فى البلاد هو الوزير الفرنسى المقيم الذى عرف
منذ ٢٣ يونيه عام ١٨٨٥ م بالمقيم العام . وكان وزيراً مفوضاً للجمهورية
الفرنسية فى السلطنة التونسية يأتى بأمر وزير الخارجية الفرنسية ، وكان كذلك
وزير خارجية الباي لا يتصل الباي بباريس إلا عن طريقه وكان رئيساً
لمجلسه يوقع إلى جانبه على المراسيم التى أصبحت نافذة منذ مرسوم يناير
عام ١٨٨٣ م . وكان يأتى بأمره قواد الجيوش فى البر والبحر كما كان يشرف
على جميع المصالح الإدارية . ولم يكن للباي سوى حرس صغير مكون من
ستمائة رجل ، وكان رعاياه يجبرون على الانخراط فى جيشه الذى كان بمثابة
قسم من الجيش الفرنسى ، وقد هلك منه ما يزيد على العشرة آلاف رجل
فى سبيل فرنسا إبان الحرب العظمى .

ويتكون مجلس الوزراء من اثنين من الوطنيين صاروا بعد ذلك ثلاثة
ومن المديرين أو رؤساء مصالح الفرنسيين ثم قائد جيش الاحتلال وأمير
بحرية بنزرت اللذين يقومان بأعمال وزير البحرية وقائد الأسطول .
وأصبحت القانديات التي تنقسم إليها القبائل أقساماً إدارية على رأس
كل منها مراقب فرنسي مدني .

أما المسائل التي تتعلق بالمقيم العام والمراقبين المدنيين والقضاء الفرنسي
فقد فصل فيها وحدها مراسيم صدرت من رئيس الجمهورية الفرنسية .
وتتنازع الحالة السياسية والإدارية والقضائية الآن في تونس سلطتان
إحداها محافظة يمثلها الباي والأخرى مجددة حديثة هي سلطة الفرنسيين .
وكان أهم ما قامت به دولة الحماية هو الحد بقدر المستطاع من التدخل الأجنبي
في شئون المال والقضاء . فضمنت فرنسا الدين التونسي ووافقت بريطانيا
العظمى وإيطاليا على إلغاء اللجنة المالية ، وعاد الميزان الاقتصادي في تونس
إلى الاستقرار بفضل نظام ثابت لإدارتها المالية ووضع ميزانية لها على المنهج
المألوف ، وجعلت للباي مخصصات ينفق منها على بيته وحاشيته . ولا تزال
الحكومة الفرنسية تعتمد في ميزانية تونس بعض المبالغ الخاصة كالإعانة
التي ترصدها لأسقفية قرطاجنة ، وأصبحت وحدة العملة هي الفرنك لا القرش
بمقتضى مرسوم أول يولييه عام ١٨٩١ م .

وأنشئت محاكم فرنسية بمقتضى القانون الفرنسي الصادر في ١٠ أبريل
عام ١٨٨٣ م ووافق الباي بمرسومه الصادر في ٥ مايو من العام نفسه على

أن الذين كانوا يتمتعون بالامتيازات يحق لهم التقاضى أمام هذه المحاكم الجديدة، ولذلك أخذت الدول الأجنبية الواحدة تلو الأخرى تلغى محاكمها القنصلية كما أنها تنازلت عن المزايا الجمركية التي كانت تتمتع بها أيام الامتيازات . وأبدت إيطاليا وحدها بعض التحفظات فلما انتهت معاهدتها مع تونس عام ١٨٦٨ م وهزمت في عدوة بالحشة ، اضطرت إلى الاعتراف بالحماية الفرنسية على تونس ، ولكن تركيا رفضت الاعتراف حتى معاهدة سيفر ١٩٢٠ م . وبالرغم من هذا احتفظت إيطاليا بمكانة ممتازة في السلطنة وأبت التنازل عنها . ويرحل إلى تونس عدد كبير من الإيطاليين وتنشر إيطاليا نفوذها عن طريق الصحافة وبيوت المال ومعاهد الثقافة بنوع خاص . ولا تخضع هذه المؤسسات للرقابة الفرنسية بمقتضى الاتفاقات المعقودة بينها وبين فرنسا وهي تشكو مع ذلك من عدة أمور فيها حيف برعاياها . وفي عام ١٩١٩ اعترفت فرنسا بملكية إيطاليا لواحتى غات وغدامس بمقتضى اتفاق وضع حداً للمشكلة الإيطالية المعلقة في تونس .

وساعدت الحماية فرنسا على أن تقوم في السلطنة باستغلال الموارد الطبيعية وتزويد البلاد بحاجاتها الثقافية والاجتماعية كالمستشفيات والصيدليات وإعداد الأطباء وإنشاء الجمعيات الخيرية والمعاهد العلمية المختلفة . وقد أدى التقدم الحديث والتوسل بالأسباب السليمة الصحيحة إلى انتعاش اقتصادى مشجع .

وتونس بلاد زراعية أولاً وقبل كل شيء تنبت الحبوب والكروم

والزيتون والبلح والخضر وكذلك الفلين والحلفاء . على أنها قد أصبحت بمرور الزمن تصدر الحديد والرصاص والخارصين ثم الفوسفات بنوع خاص منذ أن كشف مناجمه ب . توماس عام ١٨٨٥ م ، أما وارداتها فهي الوقود والحاصلات الاستوائية ومقدار كبير من المصنوعات

وتبلغ تجارتها الخارجية حوالى ثلاثة مليارات من الفرنكات وظل ميزانها التجارى فى عجز عدة سنوات ، ولم تكن مواردها من قدوم السياح كافية لسد هذا العجز .

وعملت الحكومة على تيسير الاستعمار الأوربى ووضع ملكية الأراضى على نظام حديث . فأصدرت قانونا عقاريا عاما ينص على أن تسجيل الأراضى اختياري لا يتم إلا بموافقة محكمة مختلطة أنشئت لهذا الغرض . وصدر مرسوم فى مارس عام ١٩٢٤ م مهد للقيام بمسح الأراضى ، وفى باكورة عهد الاحتلال الفرنسى ترك امتلاك الفرنسيين للأراضى لتصرفهم الشخصى ، ولم تنتهج الحكومة سياسة إسكان الفرنسيين المدنيين فى الأراضى التونسية والسير عليها سيرا حثيثا إلا منذ عام ١٩٠٠ م وأخذت الحكومة بتنازع الأراضى لتبيعها مرة أخرى بشروط يسيرة جداً للفرنسيين من خريجي المدرسة الزراعية الاستعمارية فى تونس . وأخذ الإيطاليون ينافسون الفرنسيين بكثرة فلاحهم لا بعدد ضياعهم . ولما رأت فرنسا أن الفرنسيين المدنيين يقل إقبالهم على الهجرة شرعت تستن سياسة لتيسير التجنس ، بيد أن النزاع الذى أثارته إنجلترا فى هذا

الصدد أمام محكمة لاهاى الدولية دفع الحكومة إلى إصدار قانون فرنسى فى عشرين ديسمبر عام ١٩٢٣ م يسر التجنس للأجانب والوطنيين تيسيراً كبيراً ووافقت بريطانيا بوجه عام على قواعد هذا القانون وهى متعلقة بصفة خاصة برعاياها المالمطين . أما الايطاليون فقد تخلصوا باتفاقاتهم الخاصة من ضروب التجنيس الاجبارى وإن قبل بعضهم التجنس مختاراً . ويبلغ عدد المتفرنسين فى الوقت الحاضر ربع السكان الفرنسيين ، ولا يزيد عدد المسلمين فيهم على ألفين بينما يزيد عدد اليهود على خمسة آلاف . واحتفظ اليهود و بينهم آلاف من أصل أوربى ، بالرعية الايطالية . وظلوا فى غالبية شئونهم من رعايا الباي خاضعين للسلطة والقضاء المحليين ، إلا فى الشئون المتصلة بالأحوال الشخصية فتفصل فيها محكمة تونس الربانية كما يفصل فيها أيضاً كتاب العقود الاسرائيليين . ولا يؤدى يهود تونس الخدمة العسكرية كما أنهم لا يلتحقون بوظائف الحكومة على وجه عام . ويشير تقدمهم السريع فى مضمار الحضارة الأوربية مشكلة تجنيسهم جملة أوزرافات بالجنسية الفرنسية وبمقتضى الرسوم الصادر فى ٣٠ أغسطس عام ١٩٢١ م أنشأت الحكومة لليهود جميعاً على اختلاف جنسياتهم مجلساً ملياً يتألف من اثنى عشر عضواً ينتخبون على درجتين ومدة عضويتهم أربع سنوات . ولهذا المجلس حق الفصل فى المسائل المتصلة بالاعانات والعبادات . وتعين الحكومة رؤساء الطوائف اليهودية الأخرى وكذلك حاخام الربانيين الأكبر . ولا يقبل اليهود على القيام بشعائر دينهم وإن كان للدعوة الصهيونية هناك مكانة ملحوظة .

وقد سعت الحكومة الفرنسية إلى النهوض بالإدارة الوطنية والأحوال الاقتصادية والدينية للمسلمين مع احترام شعورهم الديني ولا تزال أمامها عدة مشا كل لم تحل . وتتطور الجماعة الإسلامية تطوراً جوهرياً على الرغم من مقاومتها للحياة الأوروبية . ومن سبق الحوادث التكهن بنتائج هذا التطور . أما حركة الدستور التي تطالب بالحكم الذاتي والتي نشطت في أعقاب الحرب فقد كبح جماحها المقيم العام لوسيان سانت ، وكان بارعاً في ذلك . والظاهر أن الأهليين راضون الآن بالاصلا حات التي اتجهت إليها حكومة الحماية في سياستها الداخلية ما بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ م .

وتقوم السياسة الفرنسية الآن على مبدأين أساسيين : نزوع إلى زيادة التعاون تدريجاً مع الأهالي الوطنيين وتوسع في سلطان المجالس المنتخبة . وقد تمتع الأهالون بحقوق جديدة كأنشاء المجالس البلدية والتوسع في حرية الصحافة والاجتماع .

السكان

تضم سلطنة تونس إلى جانب المسلمين واليهود ، عدداً يتزايد على الأيام من الأوربيين ، وذلك نتيجة لهجرة الإيطاليين إليها ، وحماية الفرنسيين لها . وقد بلغ عدد السكان في إحصاء عام ١٩٢٦ للميلاد ، ٧٠٨،١٥٩ و ٢ نسمة بينهم ١٨٤،٩٣٢ مسلماً و ٥٤٠،٢٤٣ يهودياً تونسياً ، لا يدخل فيهم اليهود المتجنسون بالجنسيات الأوربية .

أما الأوربيون فيبلغ عددهم ١٧٣،٢٨١ شخصاً ، منهم ٧١،٠٢٠ فرنسياً و ٨٩،٢١٦ إيطالياً ، ٨،٣٩٦ مالطياً من رعايا بريطانيا ، و ٤،٦٤٩ شخصاً يتجنسون بجنسيات أوربية أخرى .

وقد وفد أغلب الإيطاليين من صقلية وسردينيا ، وهم يشتغلون بالبناء والتعدين والزراعة وفلاحة الكروم . أما الفرنسيون فأغلبهم موظفون في الحكومة وتجار ومستعمرون .

ويسكن جمهور الأوربيين منطقة مدينة تونس ، وكذلك يقيمون في غيرها من المدن الساحلية . فمنهم ١٠٣،٠٠٠ في تونس

٦،٧٠٠ في بنزرت

٤،١٥٠ في فريثيل

٦،٩٠٠ في سوسة

٦،٩٠٠ أيضاً في صفاقس

أما اليهود التونسيون ، فيعيش أكثر من نصفهم في مدينة تونس
أى حوالى ٢٨,١٤١ شخصاً ، ويقيم أكثر من ٣,٧٠٠ منهم في سوسة ،
وحوالى ٣,٣٠٠ في سفاقس ، وكثير منهم في بنزرت وباجة ونابل ، وقليلون
يسكنون داخل القطر . أما في الجنوب فيسكن قابس حوالى ٢٥٠٠ منهم
وفي جربة ٣,٨٠٠ ، وفي المناطق العسكرية أكثر من ٢٥٠٠ .

أما توزيع السكان عموماً على أهم مدن تونس ، فهو كما يلي :

تونس	١٨٥,٤٦٦	قابس	١٥,١١٩
سفاقس	٢٧,٧٢٣	نفطة	١٣,٢٥٠
سوسة	٢١,٢٩٨	مكنين	١٢,١٩١
بنزرت	٢٠,٥٩٣	القلعة الكبيرة	١١,٨٣٠
القيروان	١٩,٤٢٦	توزر	١١,٠٥٦
مساكن	١٦,٦٢٠	باجة	١٠,٤٦٨

ويلاحظ أن مساكن والقلعة الكبيرة — وكلتاها على الساحل —
لا يعيش فيهما إلا المسلمون .

أما عن القبائل التي تعيش في تونس ، فلسنا نستطيع أن نحدد تطورها ،
أو نبين نظامها ، حتى ولو أسقطنا من حسابنا تلك الحواضر والمدن المكتظة
بالسكان ، حيث تختلط عناصر جنسية مختلفة . فنحن نجهل أصول كثير
من هذه القبائل ، ولا نعرف بالضبط كيف انحلت أو اصرها ، واختفت معالمها .
وظال الجند العرب ، أمداً طويلاً ، قلة في العدد لا تحدث تأثيراً ذا خطر ،

في الجنس البربري التونسي . أما العامل الهام في تغيير هذا الجنس ، فكان غزوة بني هلال في منتصف القرن الحادي عشر ثم غزوات بني سليم (ق ١٢ ، ١٣ م .) ذلك أن هؤلاء الأعراب طردوا الأهالي البربر إلى النجد ، واحتلوا السهول ، وعربوا القطر التونسي وأخضعوا السكان إخضاعاً تاماً لسلطانهم ، فأصبح من المستحيل الآن التمييز بين قبائل العرب والبربر . وصفوة القول ، أن القطر التونسي هو أكثر أقطار إفريقيا الشمالية استعراياً . وإن ظلت فيه بعض القبائل البربرية إلى الآن .

إن حياة البداوة في القطر التونسي مشرفة على الزوال . ولم يعد السكان يهاجرون إلا في سنين المجاعة والقحط . وكانت العادة أن تستقر القبائل في منازلها ، ولا يرحل إلا قليل من الرعاة بأغنمهم . ولم تكن تنتقل إلا قطعان الماشية ، فتقضي الشتاء في الفياقي ، وتمضي الصيف في التل . وقد يقضي المهاجرون أياماً في سهل كمودة ، أما المثلث ، فيهاجرون وحدهم في الصيف حتى بنزرت والجلاص وسواهي بجوار باجة ، ولا يزال البدو يسكنون نفزاوة وصحراء تونس .

وقد سارت حكومة الحماية على ترغيب الناس في حياة الاستقرار ، بتسهيل حياتهم للأراضي ، وتوجيه جهودهم إلى الزراعة . وقد نفذ قانون سمي بـ « المغارسة » بمقتضاه يصبح لمن يزرع الزيتون فيما يمنح من الأرض ، الحق في امتلاك نصف هذه الأرض عند ما تبدأ أشجار الزيتون في الإثمار . أما التشريع الخاص بتنظيم الحبوس ، فقد ساعد بعض (٥)

الأسر الوطنية على الاستقرار بمنحهم حقوقاً ثابتة في استثمار الأراضي .
وقد نظم استغلال المزارع الجماعية في المناطق العسكرية الجنوبية بمقتضى
مرسوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٨ ، فأصبحت كل مجموعة من الأراضي وحدة
يشرف عليها مجلس من الأعيان .

كذلك كان للحماية الفرنسية الفضل في تمكين الملاك من إصلاح
وسائل الري ، وتوزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين وإنشاء وسائل الري ،
وتوزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين وإنشاء السكك الزراعية ،
وتأسيس الإدارة العامة للتسليف الزراعي . وفيما يلي بيان بعدد المواشي
التي كان يمتلكها الوطنيون والأجانب عام ١٩٢٨ : —

الوطنيون	الأجانب		الوطنيون	الأجانب
٧٧,٠٠٠	١٠,٥٠٠	الغنم	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٣,٥٠٠
١٥٧,٠٠٠	٢,٥٠٠	الماعز	١,٣٦٠,٠٠٠	٣٠,٥٠٠
٢٨,٥٠٠	١١,٥٠٠	الخنازير	٦,٠٠٠	١٣,٠٠٠
٤٣٠,٠٠٠	٥٥,٠٠٠	الابل	١٥١,٥٠٠	٣٠٠

والوطنيين تسعة ملايين شجرة زيتون تؤدي عليها الضرائب ، وأربعة
ملايين وثمانمائة ألف معفاة منها ، وللأجانب ٨٧٨,٠٠٠ شجرة تؤدي
عليها الضرائب ، ومليون ومائة ألف لا تؤدي عليها .

وهناك بضعة آلاف من الأهالي يعيشون على صيد السمك . وقد بطل
الآن سكنى الخيام في القطر التونسي ، مما يدل على استقرار الأهالي . وفي
الجنوب نوعان من المساكن ، أحدهما يبنى تحت سطح الأرض ، والآخر

يسمى بالقصور أو الغرف وهي مبان مستديرة طويلة ضيقة منحنية الجوانب تستعمل للتخزين . وعدد سكان المدن من الأهالي الوطنيين ، كبير بالقياس إلى غيرهم ، إذ يبلغون ١٨ ٪ من مجموع السكان . وقد اشتهر القطر التونسي بتقدم الحياة الحضرية فيه ، وبمدينة تونس ، أجنب مسلمون ، لكل منهم حي خاص .

أما التجارة الوطنية ، فأخذت بأسباب التقدم الحديث . ومن أهم مظاهر هذا التقدم ، تلك الجمعيات التعاونية التي أسسها البدالون في جربة لشراء ما يحتاجون إليه ، وبمدينة تونس عدد كبير من هذه الجمعيات . أما الصناعة المحلية فقد لقيت عناء شديداً لمنافسة السلع الأجنبية لها زمناً طويلاً ، على أن الحكومة قد عملت ما في وسعها لحماية هذه الصناعة ، وبخاصة الصناعة الفنية ، فأنشأت لها معاهد نظامية ، وبذلت الجهود لتحسين الوسائل الحرفية والفنية في الصناعة .

ومن أقدم الصناعات القائمة في تونس ، صناعة الزيت والصابون ، والصباغة التي يهددها الآن استيراد الأنيلين من أوربا ، ثم نسج الصوف والبطاطين ، في جربة وقفصة ، والجريد ، ونسج القطن في تونس ، والحرير في تونس وقصر هلال ، وشعر الماعز والإبل في الجنوب ، والسجاد ، ويقوم بصبغه النساء وبخاصة في القيروان ، ثم الطرايش في تونس ، والخزف في نابل . وكذلك نذكر منها صناعة المناخل في تونس والقيروان وسوسة ، والحصر والسلال وتقطير الكحول في نابل ودبغ الجلود وصناعة الأحذية

في تونس والقيروان ونابل والسروج في تونس والآلات القاطعة والمصنوعات المعدنية والحجرية والخشبية . أما صناعة القصدير ، فيحتكرها اليهود ، ومنهم بعض صناع الأحذية ، وكثير من الخياطين ، وأغلب الصاغة . وقد نظم مرسوم الباي نقابات ذوى الحرف ، وأهمهم صناع الشواشي ، الذين قد يقبلون في زميرتهم بعض اليهود ، ويشترطون أن يكون أمين النقابة مسلماً . أما صناعة الشاش ، فلا تزال تحتفظ بمكاتها على الرغم من منافسة الواردات من فرنسا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، وإقفال السوق التركية في وجهها ، وقد بلغ معدل إنتاج هذه الصناعة خمسين ألف كيلوجرام ، يصدر نصفها إلى الخارج .

وفيما يلي بيان لطوائف الحرف في تونس ، كما وردت في إحصاء إدارة الزراعة :

الطائفة	عدد رؤساء العمل	عدد العمال	الطائفة	عدد رؤساء العمل	عدد العمال
صناع الشواشي	٢٠٠	٦٠٠	صناع الأحذية	٢٠٠	٣٠٠
الخياطون	٦٠	١٠٠	صناع الجلود والسروج	٢٠	٧٠
صناع البرانس	١٢٠	١٥٠	الصباغ والجواهرية	٤٥	٧٠
الطعانون	١٠	٤٠	النجارون	٩٠	١٢٥
نساجو الحرير	٣٠٠	١٢٠٠	الحدادون	٢٠	٣٥
غزالو القطن	١٠٠	٣٠٠	الرسامون والنفاشون	١٠٠	٢٣٠
الصباغون	٣٠	٤٥	الدباغون	٢٥	٤٥

وخلاصة القول أن شيوخ الصناعة وعمالها في تونس يبلغون ٤٦٣٠ شخصاً .

الدين الإسلامي

ظلت تونس على المذهب المالكي أمداً طويلاً ، أما جزيرة جربة فثلاثة أخماس سكانها من الخوارج ، ويتمسك الترك أو الذين يدعون أنهم كذلك ، بالمذهب الحنفي . وهؤلاء قلة ، ولكنهم من الخاصة ، ولهم امتيازاتهم ، لأن منهم أسرة الباي . وكان يقوم على المناصب الدينية الرفيعة أيام الحفصيين ، « قاضي الجماعة » و « قاضي الأنكحة » اللذين يعينهما السلطان ، كما كان يعين المفتي الأكبر والخطيب . ويلى هؤلاء في المرتبة ، قاضي المعاملات ، وقاضي الأهلة ، أما قاضي المحلة فيصحب الجند إلى ميدان القتال .

وضعف سلطان القاضي على الأيام حتى خضع لنفوذ المفتي ، فصارا يجلسان معاً في المحكمة الشرعية ، وتلقب مفتي الحنفية الأكبر « الباشمفتي » أيام الترك بشيخ الإسلام ، ولا يزال هذا لقبه إلى الآن . أما مفتي المالكية الأكبر ، ولم يكن ذا منصب رسمي رفيع ، فقد شُرِّف بهذا اللقب في بعض الأحيان . وكان في كل مدينة من مدن القطر التونسي ، مجلس مالكي ، يقضى في مسائل الشرع المتعلقة بالأحوال الشخصية ، من معاملات وزواج وطلاق ، ووصية ، وولاية وميراث . ويتألف هذا المجلس من قاض ومفت

واحد أو أكثر . وفي الديوان بمدينة تونس مجلس حنفى إلى جانب المجلس المالكى . وكلاهما يحكم فى القضايا التى يرفعها إليهما المتقاضون أو يحولها إليهما قضاة آخرون .

ونظمت أعمال المحاكم بمرسومى ١٨٥٦ ، ١٨٧٥ ، وينظمها الآن مرسوم ١٥ ديسمبر ١٨٩٦ الذى ضبط المراسلات ونص على قيدها فى سجل خاص يقوم عليه مسئولون . وصدر فى ٣ مارس سنة ١٩٢٦ مرسوم يفرض رسوماً على القيد ، وبعد ثلاثة أيام صدر آخر ، يعنى الأهلين من هذه الرسوم . وأصبح المسجلون يعينون وفقاً لمرسوم ٢٨ يناير ١٩٣٠ . أما « العدول » أو كتاب الشرع فىكون تعيينهم بمرسوم يصدره الباي . وقد نظم قانون ٩ يناير ١٨٧٥ طريقة اختيارهم وتدريبهم . ويتم تعيينهم بناء على ترشيح القضاة . وكان الطلبة القدماء فى الجامع الكبير ، يعينون عدولا ، بمجرد حصولهم على إجازة الجامع ، دون تدريب سابق .

ثم وضعت قواعد جديدة بمرسوم ١ يوليه ١٩٢٩ ، الذى أصبح نافذاً فى ١ يناير ١٩٣١ واشترط فى تعيين العدول . ألا تقل أعمارهم عن ٢٤ عاماً ، وأن يقضوا عامين أو ثلاثة فى ممارسة العمل بأحد مكاتبه ، وأن يجتازوا امتحاناً يتطلب علماً بالتشريع التونسى ، وترخص إجازة الجامع الكبير لحاملها التقدم لامتحان الدرجة الأولى للعدول ، الذى يمكن من يجتازه من ممارسة العمل بالمدن الكبيرة . أما الذين يجتازون امتحان الدرجة الثانية ، فإنهم يمارسون أعمالهم فى مدن أقل شأنًا . وتعد وزارة العدل ، دفاتر القيد ، وتراجعها ، وتفرض عليها تفتيشاً جدياً منظماً .

وتعرف الأعيان الموقوفة في تونس « بالحبوس ». ويشرف عليها منذ أيام خير الدين ، جمعية اعترف بها مرسوم صادر في ١٩ مارس ١٩٢٤ . وعلى رأس هذه الجمعية مدير ، ومجلس إدارة . وهي تنقسم إلى إدارات ، لها « نواب » يقوم عنهم بالإدارة الفعلية وكلاء آخرون . وقد وضع قانون عام ١٩٠٨ ، هذه الجمعية تحت إشراف « مجلس الأوقاف الأعلى » الذي يشرف عليه « صاحب القلم » والمدير العام للداخلية . وكان للجمعية الحق في الإشراف على إدارة الحبوس الخاصة . وقد كان التشريع التونسي بارعاً في التخلص من مشكلات الحبوس ، فوضع لذلك إجراءات ثلاثة :

أولاً — عقد الإنزال ، وهو التنازل عن الحبوس نظير إيجار دائم . وفي عام ١٩٠٥ أصبح مدين الإنزال قادراً على تسديد دينه ، وصارت الأراضي تباع بالمزاد العائى ، إلا إذا حفظت حقوق المستغلين لها .

ثانياً — طريق الاستبدال نوعاً ، أو نقداً .

ثالثاً — الإيجار لآجال طويلة .

وتشرف الجمعية السابقة على بيت المال ، فتبذل العطايا ، وتنفق على أعمال البر ، وتتولى الحبوس التي ليس لها وريث .

أما « رباطات الإخوان » في تونس ، فليس من المستطاع إحصاؤها ، ويزيد عدد الإخوان على ستين ألفاً . وقد ورد في تقرير وضعه المقيم العام سنة ١٩٢٤ ، أن عدد الفقراء أو الإخوان في منطقة الكاف وحدها ، ثمانية

عشر ألفاً ، و يبلغ عددهم في باجة ثلث عدد السكان جميعاً . وفي تيطاوين وما جاورها ثلاثة عشر ألف فقير . وأشهر الطرق الصوفية في تونس أربع : القادرية ، والرحمانية ، والعيسوية ، واليمانية . وإخوان الطريقة العروسية كذلك ، كثير عددهم . وهناك طرق أخرى متفرعة كالمدينة والشاذلية والطيبية ، إلى جانب الطريقة البوعلية في نفطة . ويقدر الموظفون الإداريون عدد إخوان الطريقة الرحمانية والقادرية في طبرقة وتالة بخمسين في المائة ، وأربعين في المائة من مجموع الإخوان . ولكن بعض الطرق غلبت هاتين الطريقتين في مناطق أخرى . وتنتشر الطريقة العلوية التي نشأت حديثاً في الجزائر

والحق أن هذه الطرق لا أثر لها في شئون السياسة ، كما أن سلطانها الديني أخذ في الضعف . وتعرف معاهد تحفيظ القرآن الكريم في تونس بالكتاتيب . وفي مقدمة هذه المعاهد ، مدارس يشرف عليها أساتذة متخرجون في الجامع الكبير ، وتتفق عليها الجمعية تحت إشراف مدير المعارف العمومية . وليست هذه المدارس الآن سوى منازل يسكنها طلبة الجامع . ويندر أن تلقى فيها الدروس ، اللهم إلا المدرسة العصفورية التي تخرج « مؤدبين » أو معلمين للكتاتيب .

وقد أصبح الجامع الأكبر في عهد الترك مركزاً للعلوم الدينية في تونس ، وهو إلى الآن المعهد الديني الوحيد . ويضم حوالى ألفين من الطلاب ، يفدون إليه من أنحاء تونس وطرابلس والجزائر ومراكش . ومناهج

التعليم الحديثة فيه ، نظمها قانون صدر في ٢٧ رمضان ١٢٥٨ ، سمي بالمعلقة لأنه علق على باب الشفاء من أبواب الجامع الكبير .

وهيئة التدريس فيه ثلاثون عالماً . نصفهم مالكي ، والنصف الآخر من الحنفية . وكان كل عالم يلقى فيه درسين في اليوم ، ما عدا أيام الخميس والجمعة ، والعيدين وشهر رمضان . ويتقاضى العالم قرشين في اليوم ، إلا إذا تغيب بلا عذر مقبول . ويعين شيخا الإسلام المالكي والحنفي ، ناظرين للمعهد ، يتقاضى كل منهما مائة قرش في الشهر ، يعاونهما قاضيان من المذهبين ، مرتب كل منهما ثلاثة قروش في اليوم . وكان الشيوخ والقاضيان يحضرون جلسات المشرفين على بيت المال ، الذي يأخذون منه رواتبهم ، فإن وجدوا في بيت المال فائضاً ، وزعوه بشروط خاصة ، على النابهين من الطلاب . ويعين المدرسون بمقتضى مرسوم من الباي ، بعد مشورة الشيوخ والقاضيين .

ثم صدر أمر عال من سبعة وستين بندا ، أيام خير الدين ، نظم أمور المعهد في شيء من التفصيل ، وتناول العلوم التي تدرس بالمعهد ، والكتب التي تشرح ، وحقوق الطلبة والمدرسين والمشرفين ، وواجباتهم ، وكذلك شؤون المكتبة .

ثم بدت رغبة في إصلاح هذه النظم ، وتعديل الأمر العالي السابق ، فصدر أمر آخر في ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٢ ، من واحد وثمانين بندا ، وبعض الملاحق ، ويسير المعهد على هديه إلى الآن . وفي هذا القانون ،

آثار من النظم التربوية العتيقة ، ووصايا تحث على الاستقامة وحسن الخلق
وتحريم الشك في السنن التي خلفها السلف من العلماء . وتدرس في المعهد
علوم تزيد وتختلف عن العلوم التي قرر دراستها في الأزهر عام ١٨٧٢ .
وقد نص على هذه المواد التي تدرس في الجامع الكبير ، في البند الأول من
الأمر العالي ، وهي : —

التفسير . الحديث . التوحيد . القراءات . والتجويد . المصطلح . السير .
أصول الفقه . الفقه . الفرائض . التصوف . الميقات . النحو والصرف .
المعاني والبيان . اللغة والإنشاء والأدب . التاريخ والجغرافيا . الرسم
والخط . العروض . المنطق وأدب البحث . الحساب والهندسة . الهيئة .
المساحة .

وأدت روح المحافظة الجامدة ، وطرق التربية العتيقة ، المتبعة في الجامع
الكبير ، إلى الوقوف في سبيل كل تقدم في العلوم الدنيوية ، وكل اجتهاد
في العلوم الدينية . واقتصر تدريس الجغرافيا والتاريخ على كتابي رقم
الحلل لابن الخطيب . ومقدمة ابن خلدون ، مع استيعاب خلاصة للتاريخ
الإسلامي . أما الهندسة فهي الهندسة الإقليدية ، وتدرس في كتاب الطوسي .
ومراحل التعليم ثلاث ، ويعقد امتحان للانتقال من مرحلة إلى أخرى .
وفيما يلي بيان بالكتب المقررة في الدين واللغة ، لطلبة المرحلة النهائية ،
كما نص على ذلك في المادة الرابعة .

التفسير : أسرار التنزيل للبيضاوي ، تفسير الجلالين .

الحديث : الموطأ مع شرح الزرقاني ، صحيح البخارى وتفسير القسطلانى ،
صحيح مسلم وشرح الأبي ، الشفاء للقاضى عياض وشرح الشهاب الخفاجى .
السير : المواهب اللدنية للقسطلانى وشرح الزرقانى . السيرة الكلاعية .
التوحيد : شرح الجرجانى على مواقف عضد الدين الإيجى . شرح
التفتازانى على العقائد لعمر النسفى . الكبرى للشيخ السنوسى .
أصول الفقه : التوضيح لصدر الشريعة عبيد الله المحبوبى . شرح
عضد الدين الإيجى على المختصر لابن الحاجب : شرح المحلى على جمع
الجوامع لعبد الوهاب السبكى .
الفقه : تبين الحقائق لعثمان الزيلعى ، (شرح كنز الحقائق لعبد الله
النسفى) الدرر (شرح الفرر) . شرح سيدى عبد الباقى على المختصر
للخليل . شرح سيدى محمد الخرشى على المختصر للخليل .
التصوف : إحياء علوم الدين للغزالى .
النحو : مغنى اللبيب لابن هشام .
المعانى والبيان : الجزء الثالث من المفتاح ليوسف السكاكى مع شرح
الجرجانى ، المطول للتفتازانى .
اللغة والانشاء والأدب : المزهى للسيوطى . فقه اللغة للثعالبى ، شرح
المرزوقى على ديوان الحماسة . المثل السائر لابن الأثير .

ويطلق اسم المدرسين الأوائل ، على المدرسين الثلاثين الأصليين ،
ومعهم مدرس التجويد . وهم متأهلون للتدريس فى المرحلة العليا . أما فى

المرحلة الوسطى ، فهناك اثنا عشر مدرساً وآخر للتجويد . ويقوم بالتدريس في المرحلة الأولى مدرسون متطوعون ، ومتخرجون في الجامع الكبير ، ولا يتناولون أجراً (كما نص في المادة التاسعة) . وللمدرسين عطلة شهرين من منتصف يولييه إلى منتصف سبتمبر ، وشهر رمضان ، وأيام الجمع ، وخمسة أيام في كل من عيد الفطر وعيد الأضحى ، ويوم عرفات ويومين قبله ، ويوم عاشوراء ، والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ربيع الأول (المادة التاسعة والعشرون) . أما يوم الخميس ، فقد نص على أنه يوم عمل (المادة الثامنة والعشرون) . وعلى كل طالب أن يحمل معه جدولاً يوقع عليه المدرسون مرة كل شهر (المادة الثانية والثلاثون) . ويشهدون بأن حامله يحضر الدروس المقررة عليه (المادة الثالثة والثلاثون) . وعلى المشرفين الذين يعينهم النظار ، المحافظة على النظام (المادة الأربعون) . ويؤدي النظار واجباتهم بعناية تامة ، وفق قواعد المعلقة (المادة الرابعة والأربعون وما بعدها) وقد صدر ملحق في اليوم نفسه ، من إحدى عشرة مادة ، يضع الشروط الخاصة بالامتحان النهائي الذي يخول الطالب حق إجازة التطوير وبيح النجاح التحريري في الفقه ، الانتقال إلى مرحلة أعلى (المادة السادسة) . وللطالب الحق عند الامتحان الشفوي ، أن يستعد له ست ساعات ، يستجمع فيها ما حصله من علم ، مستعيناً في ذلك بالمكتبة . ويتأهل الطالب لنوع خاص من التطوير إذا نجح في قراءة القرآن الكريم وتسميعه .

وعُيِّن عام ١٩٢٨ — خمسون « معاوناً على التدريس » ، بامتحان
مسابقة عقد بين المتطوعين . وهم يتقاضون مرتباً ثابتاً قدره خمسمائة فرنك
في الشهر . وفي أول يناير ١٩٣١ كانت المخصصات السنوية للمدرسين ،
في المرحلة الثانية ، ١٣ ألف فرنك ، وفي المرحلة الأولى ستة عشر ألفاً .
وتضمنت الميزانية التونسية اعتماد إعانة مالية للجامع الكبير ، كان
مقدارها في السنة الأولى ، خمسين ألف فرنك ، وارتفعت عام ١٩٢٧ إلى
مائتين وخمسين ألفاً من الفرنكات ، ثم وصلت إلى سبعمائة وسبعين ألفاً
عام ١٩٣٠ .

وقد أدى التعديل الجديد لنظام العدول ، إلى معارضة الطلبة الذين
لا يستطيعون الالتحاق بهذه الوظائف ، والذين لا تسمح لهم دراستهم
في الجامع ، بالنجاح في امتحان العدول . ومن هنا ، نشأ التفكير في إصلاح
التعليم الديني ، أو على الأقل إدخال الدراسة القانونية العصرية في مناهج
الجامع . فشكّلت الحكومة في ديسمبر عام ١٩٢٩ ، لجنة تبحث وسائل
الإصلاح ، فحاولت جهد طاقتها أن تضع لهذا الإصلاح منهجاً خاصاً .

أما عن التعليم الحديث ، فتقوم المدرسة الصادقية بتعليم اللغة الفرنسية
والعربية إعداداً للوظائف الإدارية ، وكانت تضم ٤١٧ طالباً في العام
الدراسي ١٩٢٨ — ١٩٢٩ .

ويزداد إقبال الشباب المسلمين على المدارس الفرنسية ، وهي مدارس

ابتدائية تعلم العربية والفرنسية ، ومدارس خاصة بتعليم البنات المسلمات ،
ثم مدارس ثانوية تفتح أبوابها للجميع . وفي آخر عام ١٩٢٨ ، كان عدد
الطلبة المسلمين في مدارس تونس الفرنسية ٢٥٨٧٦ طالباً و ٢٩٣٠ طالبة ،
عدا سبعة وستين ولداً و ٦١٧ فتاة في مدارس خاصة . وكان عدد تلاميذ
الليسيه كارنو ألفين بينهم ٣٥٩ تلميذاً مسلماً ، وفي الليسيه الخاصة بالبنات
١٢٠٠ فتاة ، منهن ثمان وعشرون مسلمة . وكان كذلك ٤٦١ تلميذاً مسلماً
يطلبون العلم في ثلاثة معاهد أخرى .

وهناك معهد عال في مدينة تونس ، يعلم اللغة والأدب العربي ، ويمنح
الطلبة الأجانب إجازة في اللغة العربية الدارجة ، وأخرى في اللغة العربية
الفصحى ، ودبلوماً عالياً في اللغة العربية للطلبة المسلمين وغيرهم .

وقد نظمت الجمعية الخلدونية الإسلامية ، تحت إشراف المقيم العام ،
دراسات عربية في جميع العلوم ، يستمع إليها حوالى مائتين من الشبان .

كما أعدت إدارة العدلية في تونس دراسات قانونية باللغة العربية تؤهل
الوطنيين للاشتغال بالأعمال المتصلة بالقضاء .

اللغة

اختفت اللهجات البربرية من تونس أو كادت ، حتى إننا لا نصادف من يتكلم البربرية فيها إلا في سند بمنطقة قفصة ، وتمزرد بين قبائل مطماطة ، وفي جزيرة جربة ، حيث تتحدث النساء خاصة ، بالفاظ بربرية قديمة .

وقد تم استعراب اللغة في تونس ، وإن يكن ذلك على مراحل ، لا نعرف تفاصيلها على وجه التدقيق . والظاهر أن هذا الاستعراب قد حدث بأسرع مما نتصور وبخاصة في مدن الساحل . وقبل أن يشن بنو هلال وسليم غاراتهم على تونس ، انتشرت لغة الحواضر بين الفلاحين ، فغيروا فيها ، ونشأت بذلك لهجات ريفية . وتختلف لغة البدو ، في حروفها وقواعدها ، عن عربية الحضر ، وكذلك عن لغة المدن الساحلية .

ويلاحظ أن اللغة الغالبة على تونس ، كانت أكثر لغات بلاد المغرب محافظة على عروبتها ، وإن استعارت بعض المفردات التركية والإيطالية ، وهي الآن تكثر من استعارة الألفاظ الفرنسية . أما عربية اليهود ، فتأثرها بالفرنسية أشد ، وقد تنقرض لغتهم هذه قبل أن يتمكن العلماء من دراستها .

ولنتحدث الآن عن الصحافة الوطنية في تونس . . .

ظل إصدار الصحف محرماً بها أمداً طويلاً ، بل إن الطباعة وتجارة الكتب كانت مقيدة وخاضعة للرقابة الإدارية التي نظمت عام ١٨٧٠ بالمرسوم الصادر لتنظيم الدراسة بالجامع الكبير .

وأخذت جريدة « الرائد الرسمي التونسي » منذ عام ١٨٥٩ تنشر بعض الأخبار الإدارية ، وقد تنشر بعض المواد الأخرى ثم صدر في ١٤ أكتوبر ١٨٨٤ مرسوم ، أعقبه مرسوم آخر في ١٦ أغسطس (١٨٨٧) يرخسان بإصدار الصحف الفرنسية والإيطالية والعربية . وظهرت بعد ذلك بعام ، صحيفتان يوميتان عربيتان هما : « الحاضرة » لأبي شوشة و « الزهرة » للشاذلي . ولا تزال الصحيفة الأخيرة تصدر إلى الآن ، وتعد من صحف المحافظين ، وإن كانت في أول أمرها تدعو إلى التجديد . وبجانب هاتين الصحيفتين ، تصدر صحيفة « النهضة » كل يوم ما عدا يوم الاثنين . وأغلب الصحف العربية التونسية الآن أسبوعية : « الزمان » و « لسان الشعب » و « الصواب » و « النديم » و « الزهو » . أما صحيفة « الوزير » فهي شهرية ، وكذلك صحيفة « المنير » التي تصدر في غير نظام .

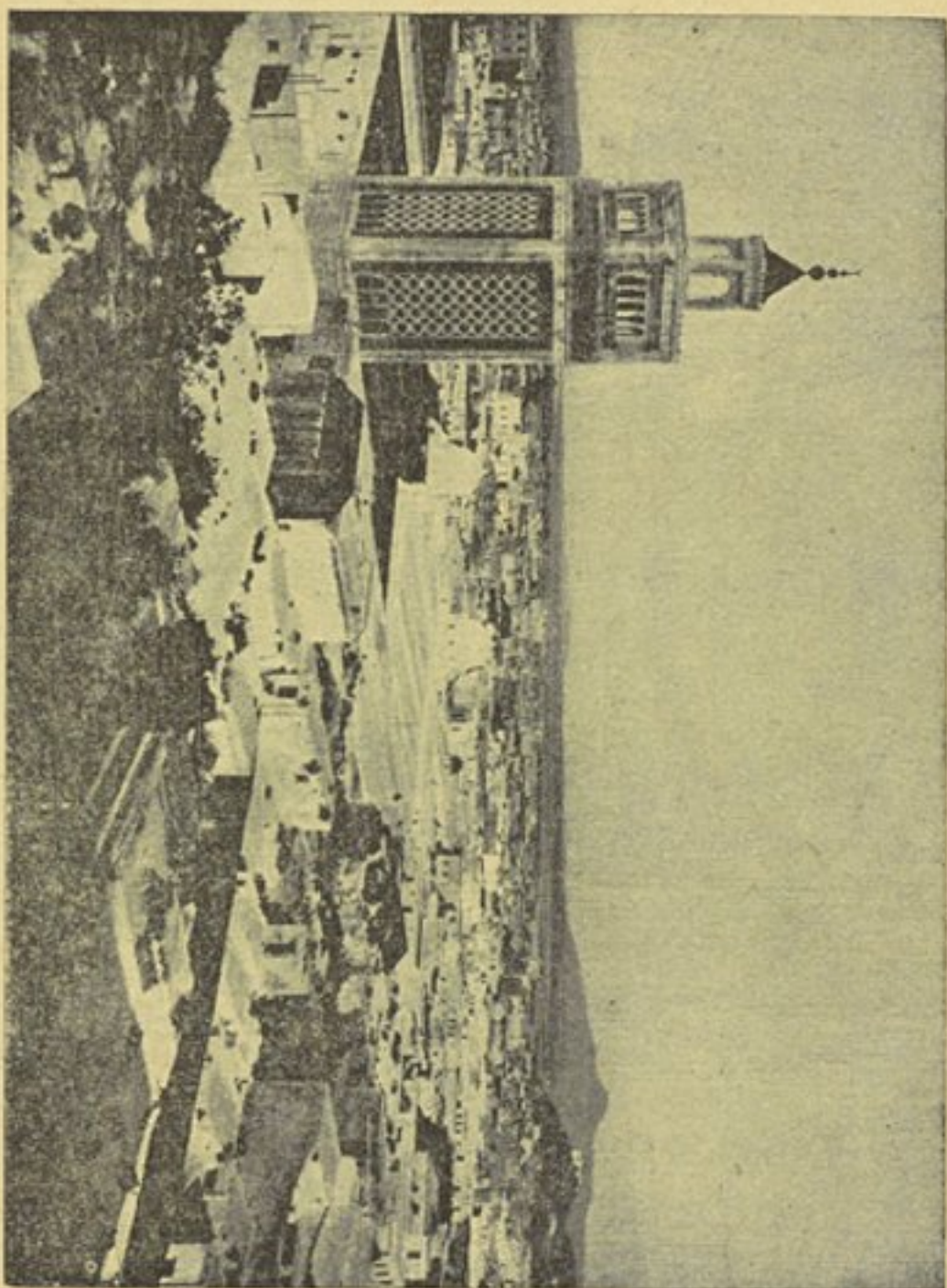
وقد ظهرت أخيراً مجلة شهرية مصورة ، تعنى بالتاريخ والأدب ، واسمها « العالم الأدبي » . غير أن أوسع المجلات الأدبية انتشاراً في تونس ، هي المجلات التي ترد إليها من القطر المصري .

وصدر تقويم يسمى « الرزنامة التونسية » من ١٨٩٩ — ١٩٢١ . ثم حلت محله نشرة سنوية إدارية ، تسمى « التقويم التونسي » .

وجدير بنا أن نلاحظ تلك الجهود الضائعة في سبيل إنشاء صحافة عربية محلية ، كالذي بذل في إنشاء صحيفة «العصر الجديد» في سفاقس ، و «القيروان» في مدينة القيروان ، بينما نجحت مجلة فرنسية أسبوعية صغيرة ، يصدرها بعض المسلمين في سفاقس واسمها «تونس الجديدة» ، لزهير العياضى ؛ كما انتشرت مجلات أخرى منها «التونسي» لباش حانبا ، و «صوت التونسي» للشاذلي خير الله ، وقد حلت محل صحيفة «العالم التونسي» ، التي أخذت بدورها مكان صحيفة «الحر» ، ثم أصدر عبد العزيز لروى في أغسطس ١٩٣٠ مجلة «الهلال» . وفي هذه الصحف التي تصدر كلها بالفرنسية ، نزعة وطنية إسلامية .

وقد كان لليهود أدب وصحافة باللغة العربية اليهودية ، تكتب بحروف عبرية ، ولكن هذه اللهجة اندثرت وقضت عليها اللغة الفرنسية ، فلم يعد يصدر بها إلا مجلة صغيرة اسمها «الصباح» .

ولليهود الآن صحف أسبوعية ثلاث تصدر بالفرنسية ، «المساواة» وهي محافظة ، ثم «العدل» وهي معتدلة والأخيرة تسمى «الصحيفة اليهودية» . وهي أروجها ، تدعو إلى الصهيونية ، أسسها فلكس ألوش عام ١٩٢٤ في سفاقس ، ثم نقل إدارتها أخيراً إلى مدينة تونس .



مدينة تونس ومسجدها الجامع

مدينة « تونس »

ويقال « تونس » : حاضرة سلطنة تونس ، على خط عرض $39^{\circ} 47'$ شمالاً وخط طول $10^{\circ} 10'$ شرقى جرينتش . وتونس في الوقت الحاضر مدينتان متصلتان ، تختلف الحياة في إحداها عنها في الأخرى اختلافاً عظيماً ، فالأولى مدينة يسكنها أهل البلاد ، وليسوا جميعاً من المسلمين ، وهى أثر من آثار القرون الخوالى بقى على حاله أو كاد ، أما الأخرى فمدينة أوربية حديثة النشأة مظهرها جديد كل الجدة لا تزال تنمو وتتسع باطراد . القديمة على مسيرة ثلاثة أرباع الميل تقريباً من طرف البركة المسماة ببحيرة تونس ، ترتفع شيئاً فشيئاً من الشرق إلى الغرب حتى تشرف على مغيض من ماء ملح كاد يجف يعرف بـ « سبخة السيجومي » وعلى هذا الجانب خارج أرباض تونس ذروة « المنوية » ، وفيها مشارف مترامية ، وإلى الجنوب الشرقى من المدينة وفى كنفها هضبة سيدى أبى الحسن وجبل الجلود ، وعلى مسافة أخرى تلال « بيركسة » ، وإلى الشمال هضبتا بلقاديرو « رأس الطابية » ووراءهما جبل أحمر وجبل نهيل . ولا تحول هذه المعارج بين تونس وبين سهولة الاتصال بسهل مرناق ووادى نهر ملىان من ناحية وبسهل

منوبة ووداي مجردة من ناحية أخرى ، كما يصلها ساحل البحيرة الشمالى
بحلق الوادى وقرطاجنة . وحصونها الطبيعية جيدة ولكنها غير منيعة ،
فكثيراً ما احتلت تونس بلا كبير عناء ، وصهاريجها تغنى الناس عن
جلب ماء الشرب من بعيد . وموقع تونس حسن جداً من الوجهة
الاقتصادية ، فهى على الخارج من أواسط سلطنة تونس ، وفى موضع
جد خصيب ، قريبة من البحر ، والسواحل الأوربية .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف عند قول كتاب العرب بأن كلمة تونس
عربية الأصل . وهم يزعمون أنها مدينة ترشيش التى ورد ذكرها فى
الكتاب المقدس . ولم نهتد بعد إلى اشتقاق معقول للاسم ، وقد قيل
إن اسم تونس الذى يطلق على المدينة نفسها يرجع إلى العهد البونية
إن لم يكن قبل ذلك . وروى ديودورس وپوليبيوس أن تينس بلدة
كبيرة شيدت وراء حصون ، ولا شك أنها قامت فى معظمها حول
« القصبة » الحالية على مسافة من البحيرة ، وكانت صالحة للملاحة
وقتذاك . وقد حاصرها الليبيون وفتحوها ، وهم الذين ثاروا فى مستهل
القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثم فتحها أجاثو قليس رجولوس . وكانت
معسكر الجند المرتزقة الثوار ثم سقطت فى يد سقبيو الإفريقى . ولعل
سقبيو الأمليانى هو الذى دمرها .

ويجب ألا نخلط بين تينس التى غدت تونس فيما بعد وبين مدينة
أخرى بالاسم نفسه على رأس أدار (بون) تعرف بالبيضاء .

ولم يكن لمدينة تونس في عهود الرومان والوندال والبوزنطيين شأن كبير . وقد وصلها بقرطاجنة طريق روماني ، ولم يكن يذكر بوجودها سوى إشارات متفرقة في مصنفات الجغرافيين أو رجال الدين . ولعلها أسطورة من الأساطير أو لعلها حقيقة من حقائق التاريخ قصة حياة القديسة زيتونة التي عاشت أيام الوندال ، والتي يقال إن الجامع الكبير وهو جامع الزيتونة سمى باسمها ، وإن الملك مارتين صاحب أرغون طالب بجثمانها عام ١٤٠٢ م وكان الفتح الإسلامي ، فخرجت مدينة تونس من الظلمات إلى النور فجأة ، وسجلت اسمها في صفحات التاريخ بوصفها المدينة الإسلامية التي ورثت بعض مفاخر قرطاجنة ، ثم سرعان ما أخذت تنافس مدينة القيروان . فما استولى حسان بن النعمان عام ٦٩٨ م على قرطاجنة ، العاصمة القديمة ودمرها حتى بادر إلى البليدة القائمة عند نهاية البحيرة وأخذ يحولها إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل في سفرات نائية ، ويحتفى فيها من مباغثة الروم . وشيد في تونس « دار الصناعة » ، وقيل إنه جلب من مصر ألف أسرة قبطية تزود هذه الدار بمهرة الصناعات . ولأسنا نعرف عن المدينة نفسها في هذه الفترة شيئاً محققاً ، وكل الذي نستطيع أن نتبينه ظنون يشوبها الإيهام عن أصل مختلف الشعوب التي نزحت إليها : فالذي لا شك فيه أنه نزلها أولاً تجار وعمال نصارى ، ثم أخذ سكانها يتضاعفون بمن أسلم من أهلها ، ومن انضم إليهم من الجند العرب ، وكانوا غلاظاً مشاغبين ذوى طمع . والمسجد الجامع هو أول بناء إسلامي بحق شيد للعبادة ، وقد ظل



مدخل مسجد الزيتونة بمدينة تونس

قبلة أهل المدينة قرونا ، وفي رواية أن الذي شيده هو ابن الحبحاب عامل
بنى أمية وهو الذي جدد كذلك دار الصناعة . ولكننا لا نعرف من الذي
شيد الأسوار . وصفوة القول أن تونس لم تكن كالقيروان في انتظام
نشأتها ، فقد نمت فجأة ، وتبدلت حياتها السياسية والدينية والاجتماعية
تبديلا عظيم الخطر وتهيأت لشأنها الجديد الذي أملت الظروف وإرادة
فاتحها البعيد النظر ، ولعل ذلك لم يكن طفرة كما يتبادر لأول وهلة بل تم
على مراحل .

وأخذت مدينة تونس تتوسع في تجارتها إبان القرنين الثامن والتاسع
الميلاديين ، ولكنها كانت مع ذلك مشهورة بصفة خاصة بتدريس الفقه
وعلم الدين ، فكان فيها قبل أن يرتفع صيت القيروان ، علماء مبرزون
ساهموا بدروسهم في نشر الإسلام بين ربوع البلاد : منهم المحدثان على
ابن زياد وعباس بن الوليد الفارسي . وقد صنف أبو العرب التميمي في
مستهل العهد الفاطمي رسالة نافعة في طبقات هؤلاء العلماء التونسيين
الأول . وقد أضيفت إلى المسجد الجامع بنايات دعت الضرورة إليها كما
زين بوسائل شتى . وقد أدخل على هذا المسجد تعديلات هامة لا شك
أنها من عمل أحمد الأغلبى البناء العظيم . ومهما يكن من شيء فقد كان
من اليسير جلب الحجر والمرمر إلى تونس لتشييد المباني دينية أو غير دينية ،
ذلك أن قرطاجنة كانت قريبة ، فما أيسر أن تنهب خرائبها وتهيء
الكثير من مواد البناء والعمد وتيجانها .

أما من الناحية السياسية فيظهر أن تونس كانت مجمع المعارضة ومركز
مناهضة السلطان المنبعث من القيروان . وكان الجند من بنى تميم الذين تضمهم
أسوارها مبعث القلاقل والفتن . واشتركت تونس في جميع الفتن التي
أخذها عمال الأمويين والعباسيين ثم أمراء الأغالبة ، واشتركت في الثورة
الكبيرة التي حمل لواءها منصور الطنبذى ، ففتحها زيادة الله الأول عنوة
وضرب أسوارها عام ٢١٨ هـ الموافق ٨٣٣ م ، وأنزل بها إبراهيم الثانى
جام غضبه بعد فتنة من هذه الفتن ، ورأى أن يضبط أمورها بنقل بلاطه
وقصبة حكومته إليها عام ٢٨١ هـ الموافق ٨٩٤ م ؛ وشيد لهذا الغرض
عدداً من المباني منها « القصبة » ولكنه قفل راجعاً إلى رقادة بعد عامين
اثنين ، وقتل ابنه عبد الله الثانى عام ٢٩٠ هـ الموافق ٩٠٣ م فى قصر بناه
لنفسه وشيكا ، وصلب قاتلاه الأول على باب الجزيرة والثانى على باب
القيروان . ولم تكن الأسباب قدهيات بعد لى تصبح تونس قصبة إفريقية .
وتعتمد الفاطميون وخلفاؤهم من صنهاجة إهال مدينة تونس ، وكانت
قصبتهم فى القيروان أو فى المهدية التى أنشئوها . وظل أهلها متمسكين
بأهداب السنة . ومما له دلالة الكبيرة أن أعظم أولياء تونس ، قد عاش
فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، أى فى الوقت الذى اقتتل
فيه أولو الأمر من الشيعة والثوار من الخوارج أعنف قتال فى سبيل الغلبة
على إفريقية ؛ هذا الولى هو سيدى محرز الذى سأل ابن أبى زيد تأليف
رسالته الشهيرة وتلقاها ، وهى الخلاصة المعتمدة للمذهب المالكى فى شمال

إفريقية : وكان هو الذى أنزل السكينة على قلوب أهل المدينة بعد أن مرت
بها تلك الفترة الوجيزة المشؤومة التى احتل فيها أبو يزيد المدينة عام ٣٣٢ هـ
الموافق ٩٤٤ م وحشهم على إقامة سور مكين حولها وشجعهم على تنظيم أسباب
الاتجار فيما بينهم . ولعل الفضل يعود إليه فى بناء فندق « الحراثية »
القديم ، وهو قبالة زاويته تقريباً وعلى مسافة قصيرة من باب كبير من
أبواب المدينة ، وربما صح هذا على « السويقة » التى سمي الباب باسمها
فقال « باب السويقة » ، وثمة رواية متواترة تذهب إلى أن سيدى محرز
أنشأ أيضاً « حارة اليهود » وهى على مسافة من زاويته من اتجاه المسجد
الجامع ، وجلى أنه قصد بهذا العمل إلى أن يستبقى من ذلك الحى قوما
يحبذون التجارة خاصة ، وهى من أسباب ازدهار المدينة .

وقد شهد ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى بما كانت عليه مدينة
تونس من ازدهار ، فأطنب فى الإشادة بوفرة غلاتها وحسن موقعها وثراء
أهلها ، وخص بالذكر نخارها ورى الدساتين التى حولها بطواحين الماء . وزاد
البكرى تفاصيل أخرى من القرن التالى فذكر الأسوار والخندق والأبواب
الخمس وهى باب الجزيرة فى الجنوب ، وباب البحر الذى يفتح على الفرضة
وباب قرطاجنة فى الشرق ، وباب السقائين ، وجلى أنه كباب السويقة
فى الشمال ، وباب أرطه فى الغرب ؛ وكان مدخل الفرضة يغلق بسلسلة ،
يحميها من الشمال سور ومن الجنوب حصن من الحجر يعرف بـ « قصر
السلسلة » . وقد أعجب البكرى بأسواقها العامرة وحماماتها وبالمسجد الجامع

وكان درج مدخله كما هو الآن اثنتى عشرة درجة ، وأشاد بكثرة زادهـا من الفاكهة والسـمك ولم يفتـه أن يذـكر نخارها . ثم انتقل إلى موضوع آخر فتحدث عن إقبال أهل تونس على علوم الفقه .

والظاهر أن تونس كانت فى أمن ورخاء حتى وقعت الواقعة المشؤومة فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى فقلبت الحالة الاقتصادية والسياسية بأسرها رأساً على عقب ، ونعنى بهذه الواقعة غزوة العرب المـلـايـة .

وغلب الفاتحون الجدد ، الزيرية الضعفاء على أمرهم فاعتكفوا فى المهدية ووقعت تونس زماناً فى يد عابد بن أبى الغيث أمير بنى رياح عام ٤٤٦ هـ الموافق ١٠٥٤ م ، ثم طلبت الأمن فدخلت فى طاعة الناصر الحمادى صاحب القلعة فأرسل إليها عامله عبد الحق بن خراسان الصنهاجى عام ٤٥١ هـ الموافق ١٠٥٩ م وسرعان ما جاهر هذا العامل باستقلاله فتأسست بذلك أول دولة تونسية ، ومكنت هذه الدولة لنفسها قرناً من الزمان إلا عشرين عاماً حتى غزاها الموحدون بعد ذلك بقرن على التحقيق .

وجار عليها أول الأمر الرياحية من بنى على ، وكانوا قد وطدوا أقدامهم فى المعلقة من أعمال قرطاجنة فصالحتهم تونس لتأمن غاراتهم ووعدوا ألا يتعرضوا للناحية أو لأحد من أهلها نظير جزية سنوية ، بل إنهم سرعان ما حضروا أسواق تونس للبيع والشراء جميعاً . وسلمت المدينة من سعايات زيرية المهدية ونورمان صقلية ، وعكر صفوها فى الوقت نفسه شـبـوب الفتن والأحزاب المتنافسة وشغب الصف واقتتلهم والتناذب بين

الأحياء المختلفة ، ومع ذلك فقد بدأت تجارتها في البحر تنفق في هذا العهد المضطرب ، فانتظمت تجارتها مع إيطاليا ونمت ، وازدادت العلاقات التجارية مع النصارى فأدى ذلك إلى رخاء لم يكن في الحسبان . وقد كان لبني خراسان أنفسهم نصيب كبير في ترقية مدينة تونس وازدهارها ، فخصنها أحمد ، وهو أعظم أمراءهم ، في النصف الأول من القرن الثاني عشر وبني الأسوار التي ذكرها الإدريسي . كما أنه هو الذي شيد « القصر » ، وربما كان المسجد المعروف الآن بجامع القصر متصلا به في أول الأمر . وفي هذا الحى بالقرب من شارع بنو كريسان ، والظاهر أنه تحريف خراسان ، لا تزال مقبرة بني خراسان قائمة إلى الآن ، ولعلها كانت متصلة في الأصل بمقبرة السلسلة . والباب الكبير للمسجد الجامع من أيام هذه الدولة . وتحددت هيئة تونس الآن عندما قامت ضاحيتها الكبيرتان ، باب سويقة و باب الجزيرة ، وهما يمتدان شمالى المدينة القديمة وجنوبها . وأخذ شأنها يعظم حتى أصبحت قصبة إفريقية . وقد ظل هذا حالها من أيام عبد المؤمن عام ٥٥٤ هـ الموافق ١١٥٩ م إلى وقتنا هذا ، فاندمج تاريخها السياسى في تاريخ سلطنة تونس .

وقد أفرغت الناس غارات ابن عبد الكريم الرغراغى الفاشلة عام ٥٩٥ هـ الموافق ١١٩٩ م كما شق عليهم حكم آخر المرابطين يحيى بن غانية عام ١٢٠٣ - ١٢٠٤ ، فكان من نصيب الحفصيين أن يعيدوا إلى تونس أمنها وسلامتها ، وأن يزيدوا في منشآتها ، وأن يجعلوا منها قصبة جديدة

باسمها . وقد شيد أبو محمد بن أبي حفص ، وكان لا يزال يحكم البلاد من قبل خليفة مراکش في حي باب السويقة (في شارع الحلفاويين) مسجداً جامعاً ، يعرف باسمه إلى الآن ، وإن كان هذا الاسم قد حرف بطبيعة الحال حتى أصبح « باي محمد » . وكان أبو زكريا أول أمراء هذه الدولة المستقلين ، وتدل منشأته على أن المدينة بدأت تدخل في عهد جديد . فقد شيد عام ١٢٣٠م خارج المدينة ناحية الجنوب الغربي مصلاه الحصين المعروف بـ « جامع السلطان » ، وهو الذي أشار إليه ابن بطوطة في القرن التالي ، ثم شرع في تعمير القصبة ، وأقام في طرفها مسجداً خاصاً به هو مسجد الموحدين أو القصبة ، ومثذنته على النمط الموحدى الخالص . وأنشأ خزانة كتب بددها ابن اللحياني أحد خلفائه واقتنى أثر المشاركة ففتح في تونس مدرسة الشماعية بالقرب من سوق الشماعين القديم ، وهو الآن سوق البافجية ، وقد رمت فيما بعد وكانت أول مدرسة فتحت في شمال إفريقيا . وأبو زكريا هذا هو الذي أجاز بنات يحيى بن غانية الثلاث في القصر الذي عرف منذ ذلك بـ « قصر البنات » . ثم إنه هو الذي نظم الأسواق حول المسجد الجامع مباشرة وفتح سوق العطارين ، وربما كان هو الذي أنشأ كذلك سوق القماش .

وجاء بعده ابنه الخليفة المستنصر بالله فلم يقتف أثر أبيه في العناية بشئون التجارة والدين ؛ بل كان رجلاً تهاهاً يميل إلى الأبهة والبذخ . فبنى قاعة لمخافه تعرف بـ « قبة أسارك » عام ١٢٥٣م في قصر القصبة ،

وغرس حدائق للهوه في الربض المجاور له عند رأس الطابية على الطريق إلى باردو عند أبي فهر . ووصل القاعة بالبساتين طريق محجوب تسير فيه النساء فلا يراهن أحد . وفي عام ٦٦٥ هـ الموافق ١٢٦٧ م أتم الخليفة تعمير جسور قرطاجنة المعلقة القديمة المعروفة بالحنايا فأشاد ابن حازم بهذا الصنيع في شعره ؛ وجلب الماء إلى بركة أبي فهر الكبيرة ، ومنها إلى المسجد الجامع .

وبنت أمه عطف ، وكانت أرملة فاضلة لزوج تقي ، مدرسة أخرى هي المدرسة التوفيقية الملحقة بجامع التوفيق أو جامع الهوى الذي يرجع تاريخه إلى هذا العهد . وقد بنى الحفصيون في القرن الأول من حكمهم مسجدين آخرين هما : جامع الزيتونة البراني (عام ١٢٨٣ م) خارج باب البحر ، وقد شيد بأمر أبي الفضل ليحل محل الفندق الذي كانت تباع الخمر فيه ، وجامع الحلق في الحى نفسه عند المصلى . وبنى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق مدرسة ثالثة هي مدرسة المعرض في سوق الكتبيين — وقد بنيت أيضاً لتحل محل فندق يؤمه شاربو الخمر — ولكنها زالت من الوجود وأصبحت أثراً بعد عين ، ثم عمرت الأسوار أو بعضها على الأقل ، ومنها الباب الجديد وباب المنارة وربما بنى معها باب البنات ، وليس له الآن وجود .

وأصبحت تونس عام ١٣٠٠ قريبة الشبه جداً بتونس الحالية . فقد امتدت المدينة من الشمال إلى الجنوب وكانت تنحصر بين القصبة من ناحية

الغرب — وهى قصر الأمير الحصين الذى يشرف على المدينة وعلى سهل
المنوبة — وبين باب البحر من ناحية الشرق عند أسفل السهل ، وهذا
الباب يفتح على دار الصناعة ومنها إلى البحيرة . وفى منتصف هذا المرقى ،
وفى سرّة المدينة بالضبط المسجد الكبير وتفتح أبوابه على الأسواق الجديدة
المحيطة به . وقد عرف الباب الشمالى باب البهور . ونحن نتساءل
أكان اسم الباب الغربى باب الشفاء ؟ وكانت كل سوق تغلق أبوابها إذا
جاء الليل ، ولا يزال هذا شأنها إلى اليوم ، وباب الربع القريب من السوق
الذى يعرف بهذا الاسم هو المخرج الجنوبى لهذا الحى كما هى الحال الآن .
وقد تجمعت دكاكين بعض أرباب الحرف اليدوية حول المدينة خارج هذه
الأبواب ، فالصباغون داخل باب الجزيرة ، والحدادون عند الباب الجديد ،
والسروجية عند باب المنارة . وكانت تجاور باب البحر بطبيعة الحال عدة
فنادق يتوزعها تجار النصارى ، فلما ضاقت بهم هذه البقعة بادروا إلى بناء
حى صغير أو ربض خاص بهم خارج الباب ، وهو الصورة الأولى للحى
الأوروبى . وكانت الدور تبنى متلاصقة ، لا فسحة بينها ولا رحبة للأسواق
والمخافل : ولم تكن بطحاء ابن مردوم سوى مفرق طريق .

أما الأحياء الخارجية ، فهى أحدث عهداً وأقل زحاماً . فيها رحبات
واسعة يبيع الناس فيها ويشترون . ويحمى كل حى من هذه الأحياء سور
خارجى ينتهى عند القصبة ، أما أبواب الصف الأول من هذه الحصون فهى
فى الحى الجنوبى : باب خالد (ولا شك أنه كان فى الأصل باب المنصور)

في الغرب ، و باب الجرجاني في الجنوب ، و باب الفلاق و باب علاوة^(١) في الجنوب الشرقي ، وفي الحى الشمالى : باب الخضراء في الشمال الشرقي و باب [أبى] سعدون في الشمال الغربى و باب الأقواس في الغرب ، ولعله عين باب العلوج ، وقد ورد ذكره لأول مرة بعد هذا العهد . وإذا أردنا أن نعين مكان ر بـض العلوج فلا مناص من أن نضعه بجوار الباب الأخير . والعلوج مرتزة نصارى يدفع لهم سلاطين تونس أعطياتهم .

أما القصبة نفسها ، فإن أحد بابيها يفتح على الريف وهو باب الغدر ، والآخر على المدينة وهو باب إنتجـمى .

وبين باب علاوة و باب الخضراء مجموع من الخنادق تجرى فيها الميازيب فتصب شرقاً في البحيرة . والمقابر حول المدينة ، وقد لحقت على الأيام بأرباضها ، فلما اتسعت هذه الأرباض خرجت عنها . وإلى الجنوب الغربى الزلاج الرحب ويكاد يكون قائماً بنفسه وهو يخلد ذكر أبى الحسن الشاذلى المتصوف (سيدى بالحسن) ، صاحب الطريقة الشاذلية وقد عاش هناك في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى . وتلاصق باب الجرجاني بجوار مقبرة الهنتاتية أضرحة كثير من « الأولياء » .

وقد اعتزت تونس بالمرابطين الذين لا ينكر سلطانهم السياسى أحد ، مثل أبى محمد المرجاني مؤدب أبى عـصيدة الذى أصبح خليفة فيما بعد . ولها أن تفاخر أكثر من ذلك بمن أخرجتهم من الفقهاء والأدباء والعلماء الذين

(١) في لغة أهل تونس باب عليوة .

ازداد عددهم على الأيام . وقد ازدهرت بها علوم الدين كما قال العبدري
عام ١٢٨٩م . ومن برزوا فيها القاضى ابن زيتون عند نهاية القرن
الثالث عشر الميلادى .

وكانت للمسلمين المهاجرين من الأندلس مشاركة قيمة فى النهوض
بدراسة الأدب وفقه المالكية منهم ابن الأبار وقاضى القضاة ابن الغمار ،
وقد وفدا من بلنسية ؛ وبنو عصفور من إشبيلية وكذلك بنو خلدون
أجداد ابن خلدون مؤرخ شمالى إفريقية الأشهر .

كان القرن الرابع عشر موضع إعجاب الرحالة خالد البلوى فهو العصر
الذهبي للفقهاء والمفسرين ومنهم ابن عبد الرفيع وابن عبد السلام وعيسى
الغبريني والقاضى ابن راشد القفصى والمفتى ابن هارون ثم ابن عرفة الإمام
الجليل . أما فى ميدان السياسة فإننا لم نأنس فى الحكم إلا ضعفاً
وفى المحكومين إلا اضطراباً وخوفاً . فليس أيسر من أن يهدد الأعراب
المدينة ، كما احتلها المرينيون مرتين . وكان نموها ناحية الغرب وناحية
الجنوب الغربى بالغ القوة فى القرن السابق ثم أعقبه شىء من الخمول .
ومع ذلك فنحن نذكر أن مدرستين قد أنشئت فى هذا العهد ، ابتنت الأولى
أخت الخليفة أبى يحيى وتعرف بالمدرسة العنقية (فى شارع عنق الجمل) وبني
الأخرى ابن تافراگين الحاجب (فى شارع سيدى إبراهيم) وقد أصبحت
الآن أطلالا . ومن سمات هذا العصر أن المهندسين قد عنوا أولاً وقبل
كل شىء بما تتطلبه ضرورات الحرب ، فقد عمر أبو الحسن المرينى بعد

هزيمته في القيروان عام ١٣٤٨م أسوار مدينة تونس واحتفر حولها خندقاً؛
ودعم ابن تافراكين الأسوار الخارجية وأنشأ أحباساً عظيمة لحمايتها .

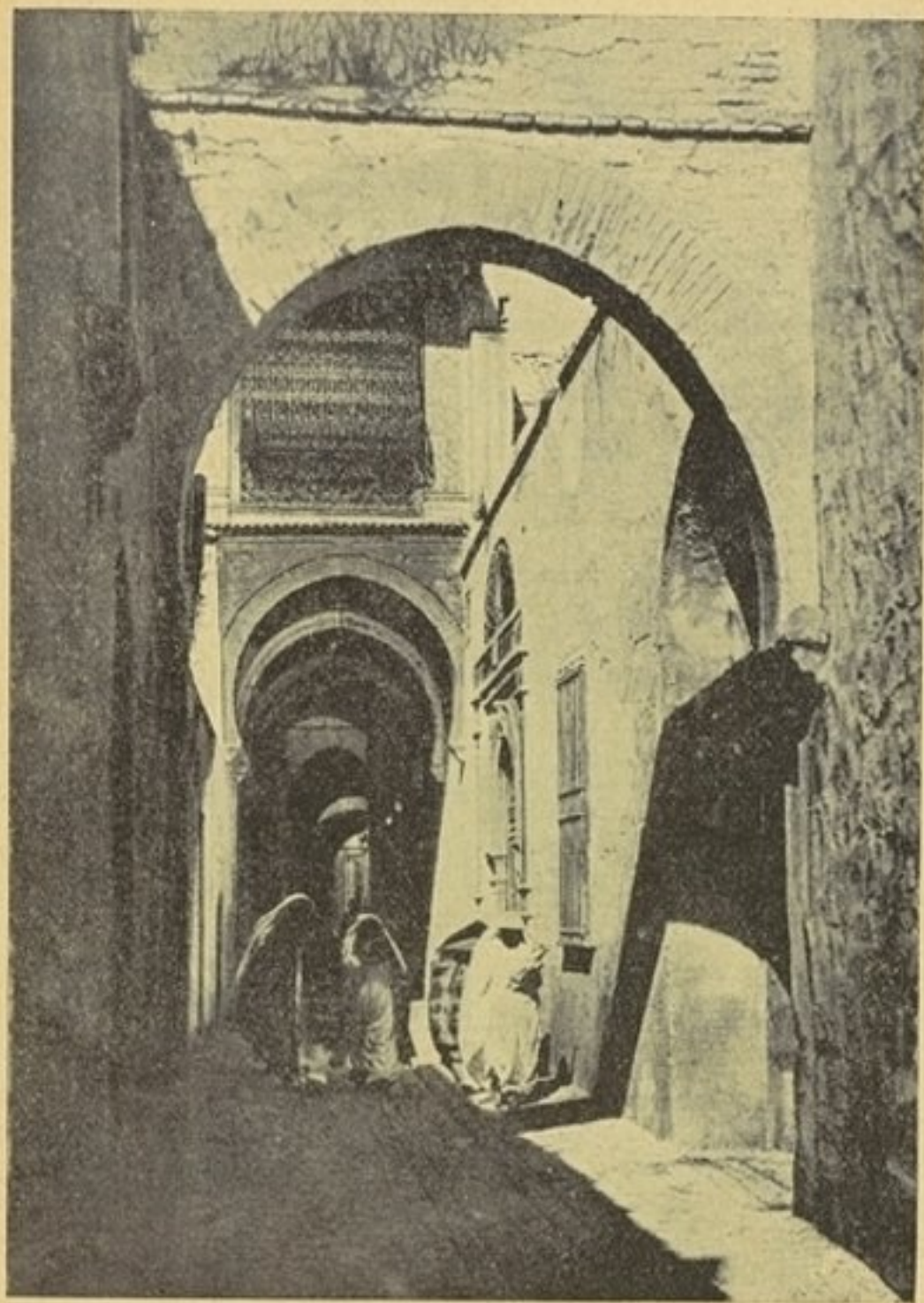
وكان القرن الخامس عشر فاستقرت أمورها السياسية ونشطت لذلك
حركة المباني نشاطاً ملحوظاً ، بيد أنها لم تكن واسعة النطاق . ولم يشيد
أبو فارس وحفيده أبو عمر عثمان في حكمهما الطويل إلا خزانتى كتب
ومدارس قليلة ، وانصرف جل اهتمامهما إلى أعمال البر ، فابتنوا أول مارستان
إسلامي في تونس ، وعدة زوايا في الأرباض يلتجئ إليها الناس في النهار
والليل جميعاً ، كما اهتم بما يتصل بالماء مدفوعين إلى ذلك بعامل الدين
أيضاً : فأنشأ صهرينجاً كبيراً في المصلى ، وميضأة في سوق العطارين
وسقايات ومصاصة ، (وهى سبيل يمص فيه الإنسان الماء من صنبور)
وأخذ المرابطون وأصحاب الطرق يسيطرون على الدين يوماً بعد يوم .
وأبرز رجال هذا العصر سيدى أحمد بن عروس صاحب الطريقة العروسية ؛
وسيدى قاسم الجليزى وسيدى منصور ابن جردان .

والظاهر أن التجارة كانت آخذة بأسباب الرقى وقتذاك ؛ وقد حافظت
تونس على اتصالها بأوروبا وكانت بها أسواق للزيت والخضر وفحم الحجر
وسوق للصغارين (النحاسين) وسوق للعزافين (صانعى السلال) . وقد
قدر عدد المنازل رسمياً عام ١٣٦١ بسبعة آلاف منزل كما قال ابن الشماخ
ثم زاد عام ١٥١٦ إلى عشرة آلاف منزل كما قال الحسن بن محمد الوزان
الزياتى . وأورد الرحالة ثان غستيليه معلومات قيمة عن حياة النصارى في

تونس عام ١٤٨٥، أما أولو الأمر فقد انتهجوا سنة أسلافهم وعملوا على الإقامة خارج المدينة، وأغلب ما يكون ذلك في ضيعتهم باردو . وسرعان ما أصبحت مجموعة كبيرة من المباني . وينسب إلى أبي عبد الله الحفصي قصر العبدلية عند المرسى وكذلك خزانة الكتب المعروفة بالاسم نفسه والملحقة بالمسجد الجامع وكان القرن السادس عشر قرناً يسوده الاضطراب فأصبحت المدينة المنكودة الطالع غرضاً من أهم أغراض الترك والأسبان في حروبهم الطويلة ، وقد نهبتها جنود خير الدين عام ١٥٣٤ م ثم سلبها جيش شارل الخامس المظفر في العام الذي يليه . وفر أهلها في جمع واحد أمام النصارى من باب الفلاق ، وقد غير اسمه تبعاً لذلك فأصبح باب القلة (أى باب الهزيمة) . وجلى أن الأحوال التي عمر فيها الحفصيون ما تخرب وصانوه لم تكن جد مواتية لنمو المدينة . فقد صرف الأمراء كل اهتمامهم إلى الحصون التي زيدت عليها حصون حلق الوادى ، ويظهر أنها لم تتم حتى خريف عام ١٥٧٣ م عند ما طرد دون جون النمساوى من تونس القائد رمضان الذى ظل عاملاً عليها أربع سنين من قبل على باشا . وقد حصنت القسبة تحصيناً قوياً ، وقام فى مكان دار الصناعة على ساحل البحيرة ، حصن على هيئة النجم يصله بأسوار المدينة متراسان . بيد أن هذا الجهد ذهب أدراج الرياح . وعاث الجند الأسبان فى المدينة فساداً فهجرها الأهليون واستولى الترك فى سبتمبر عام ١٥٧٤ م على هذا الحصن وهدموه . وأقام سنان باشا فى تونس حكماً موطد الأركان ، فأخذت العمارة فى الازدهار بعد ذلك بأمد وجيز .

وزاد خروج الناس من الأندلس واستمر قروناً واتسع مداه فجأة عند ما رحب الداي عثمان بعرب الأندلس الذين طردهم فيليب الثالث . فأقام أهل الحضر منهم في تونس وسكنوا حينئذ اثنى عشر عاماً (شارع الأندلس جنوب غربى « المدينة ») وحومة الأندلس بالقرب من موضع الحلفاويين ، وهم الذين أدخلوا صناعة الشاشية (القلانس الحُمْر) . وكان لتونس في القرن السابع شأن خاص بفضل اجتماع الأندلسيين المسلمين بالترك الحنفية المشاركة ، وقوة المرتدين الفرنجة والقرصان .

وكان الداي يوسف الأول أول من اشتهر بإقامة المنشآت العامة ، كأنشاء حى تجارى حول باب البنات وتعمير سوق الغزل المجاور لهذا الحى ، وبناء سوق لتجار جربة وإصلاح عدة أسواق أخرى وتوسيع أسواق الحفصيين ناحية الشمال وهى : سوق البشامقية (وهم صناع السراويل التركية ، شارع سيدى ابن زياد) وسوق البركة لبيع العبيد السودان ، وسوق الترك للخياطين الترك ، وإنشاء قهوة ، ومد مجارى المياه إلى بقاع مختلفة فى المدينة كالمسجد الجامع فيما يلى سوق الترك . وشيد صفيه على ثابت (عام ١٦٢٠م) الميضاة البديعة التى تزين الآن « البلقدير » وعمر على كذلك المسجد الجديد فى ربض باب الجزيرة . وربما كانت إعادة بناء المسجد الشرقى المعروف بباب الجنائز قد حدثت فى ذلك العهد . وابتنى يوسف (عام ١٦٢٢) فى شارع سيدى ابن زياد مدرسة ومسجداً للحنفية مئذنته مثمثة الشكل وإلى جانبه ضريحه . وأخذ سلطان الدايات يتضاءل بعده ، فلم يقوموا بعمل



شارع الأندلس بمدينة تونس

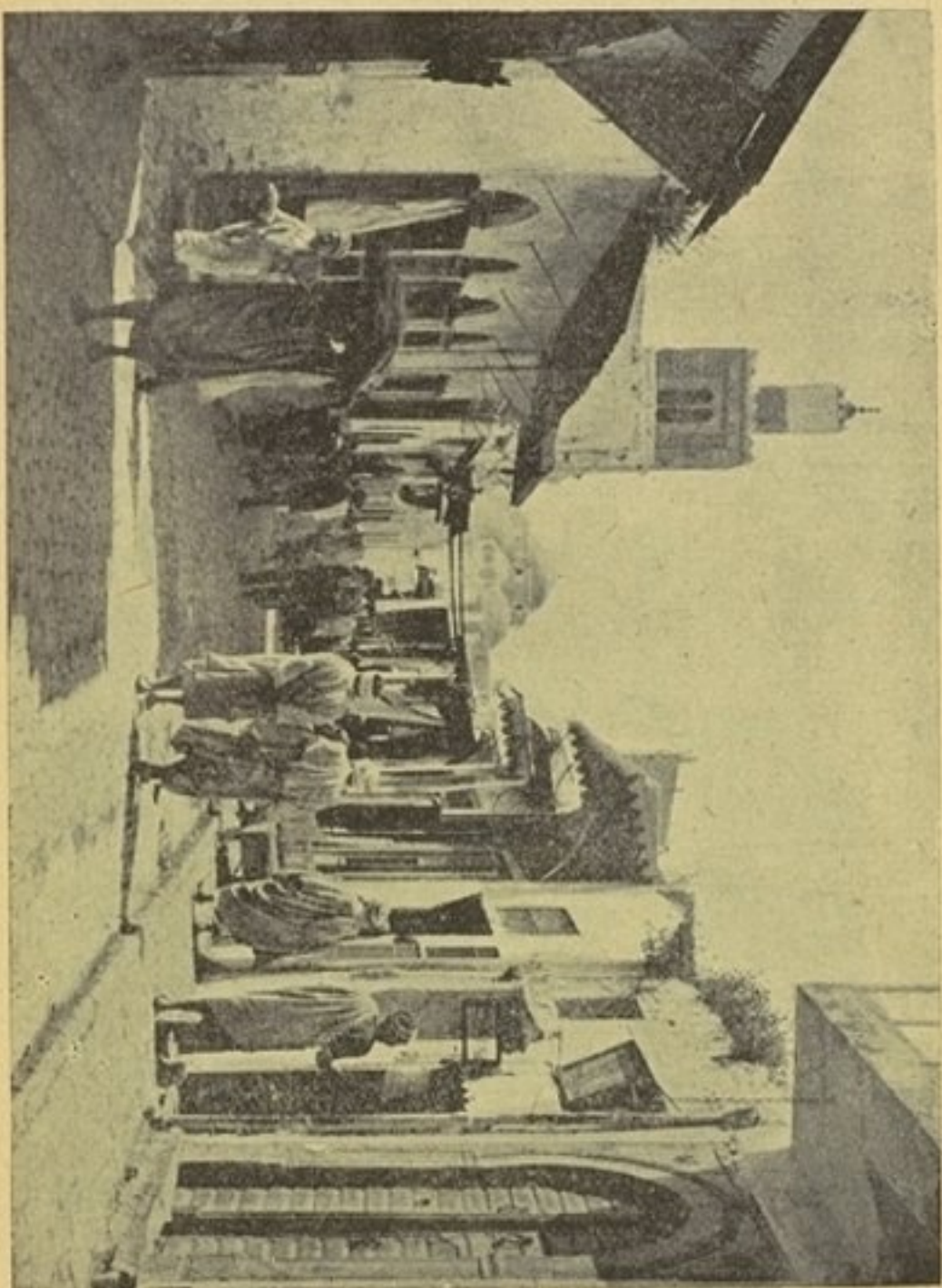
عظيم . وقنع أحمد خوجة بتعمير المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية ، وشيد محمد لاز عام ١٦٤٩ م مئذنة القصر العجيبة ؛ فلما توفي عام ١٦٥٣ م شيدت له ولأهل بيته « تربة » في ميدان القصبة .

وقد شيد البايات المرادية كثيراً من العماثر ، وبنى حمودة مسجد سيدى ابن عروس الحنفى على نمط مسجد الداى يوسف وبالقرب منه ، كما بنى بجواره ضريحاً لأهل بيته . وعمر كذلك منارة المسجد الكبير وشيد مارستاناً فى شارع العرافين وشرع فى تعمير الجسر المعلق ، وبنى ولده مراد المدرسة المرادية فى سوق القماش ، وفتح ابنه الثانى سوق الشاشية وأقام حفيده محمد مسجد سيدى محرز بعد عام ١٦٧٥ ، وهو أهم مساجد المدينة . ويقال إن المهندس الفرنسى دقيليه هو الذى رسم خطة قبابه . وكانت القصبة فى أول أمرها مقر الباشوات قبل تقلص سلطانهم ، وكانت تضم بنائتين كبيرتين : فى الأولى حرس الدايات والضباط مع أهلهم ، والثانية وراءها وفيها السقيفة التى يلتقى فيها الداى جنده وفى أقصاها مسكنهم . أما الديوان الذى يرأس فيه الأغا المجلس العسكرى فهو قاعة متسعة مستطيلة ولا تزال المحكمة الشرعية فى هذا الموضع . وكان الحى الواقع غربى المدينة وشمال غربىها (وبخاصة طريق الباشا) هو حى السراة أو الحى التركى الصميم وقد زينت بالمرمر دور الدايات الفخمة وغيرهم من الأعيان ، وكانت الرحبة الوسطى - وهى من سمات الدور المألوفة فى ذلك العهد - تزين أحياناً بجوسق أو بركة من الماء ، ولكن الرياش والزخارف كانت فيها نزعة إلى محاكاة الردىء من الفن الإيطالى .

وتوسع القرصان في مغامراتهم فازداد عدد العبيد من النصارى ومن ثم كثر عدد تلك السجون العجيبة التي ينسب كل منها إلى قديس تنذر له البيعة التي يحتويها السجن . و ذكر الأب دان تسعا منذ عام ١٦٣٥ م ، وسرعان ما أصبحت ثلاثة عشر سجناً . وفي أيام جان له فاشيه قنصل فرنسا شيدت أول كنيسة في دار القنصلية نذرت إلى القديس لويس ، وهو أيضاً الذى أقام على أطلالها كنيسة القديس أنطونيوس في وسط المقبرة الرومانية الكاثوليكية ، وأقام حولها الأسوار العالية خارج باب البحر (في موضع الكتدرائية الحالية) ؛ وهو الذى استأذن من الديوان وحصل منه على أرض بنى عليها قنصلية للفرنسيين عرفت بـ « فندق الفرنسيين » وقد تم بناؤها عام ١٦٦١ م . وكان البروتستانت يدفنون خارج باب قرطاجنة في مقبرة القديس جورج في الموضع الذى تقوم عليه الآن الكنيسة الانجليزية . ويظهر أن تجار النصارى لم يكونوا كثيرين على الرغم من حماية القنصلية لهم . « فالأمة » الفرنسية لم تكن منذ أمد طويل سوى ستة أشخاص ! وكان غالب التجارة الخارجية في يد اليهود ومعهم المهاجرون من الأندلس والبرتغال . وقد وفدوا إلى تونس مباشرة أو بطريق إيطاليا ، وكانوا يتميزون عن التوانسة القدماء ، أما الكرانة أو البرتغال فكانوا جماعة منفصلة برأسها ، وإليهم نسب « سوق الكرانة » وكانت مقابر اليهود خارج الأسوار شرقى حى باب السويقة بجوار شارع سيدى سفيان الحالى ؛ ثم امتدت ناحية الجنوب . وسادت القلاقل السياسية ختام القرن السابع عشر ، وبداية القرن الثامن عشر واحتل إبانها أهل الجزائر تونس مرتين ، وصحبت ذلك فتن

سفكت فيها الدماء . ولم تكن الأسوار من المناعة بحيث ترد هجوماً عنيفاً ولم تتبع في بنائها قاعدة من قواعد التحصين . بل إن تونس وقعت مرة أخرى تحت رحمة أهل الجزائر ، في عهد الحسينية ، ونهبها هؤلاء الجزائريون عام ١٧٣٥ م ، فحاول التوانسة عبثاً أن يقفوا في وجوههم واستعانوا في ذلك بحصون تعجل على باشا وابنه محمد في بنائها .

وقد حفلت المدينة في الفترات التي رفرف عليها السلام بينايات أخرى ففي أيام رأس الدولة الجديدة حسين بن علي توفيت الأميرة عزيزة عثمانه ، عام ١٧١٠ م ، وهي كبرى حفيدات الداى عثمان ، ودفنت بالقرب من مدرسة الشماعية . وقد انتفع كثير من منشآت البر والتقوى بجزيل عطاياها . وكان حسين نفسه ببناءً عظيماً ، فقد شيد في الحى الجنوبي من تونس الجامع الجديد أو « جامع الصباغين » وهو الذى اختط الطرق والمباني الملاصقة لسوق السروجية . وفي عهده شيد ضريح الداى قره مصطفى بجوار مسجد القصر وهو الذى نقل قصبة ملكه إلى باردو . وقد عني ببناء المدارس كمدرسة النخلة والمدرسة الحسينية والمدرسة الجديدة . وخلفه على باشا ، فنسج على منواله وبني أربع مدارس هي : الباشية في سوق الكتبيين والسلمانية وسميت كذلك تخليداً لذكرى ولده المتوفى سليمان ومدرسة بئر الحجار ومدرسة حوانيت عاشور . ثم أنشأ على باى بعد ذلك مدرسة أخرى باسم المدرسة الجديدة وإليه يرجع الفضل في بناء مقبرة الحسينية المعروفة بـ « تربة الباي » وهي غير بعيدة من مسجد الصباغين وكذلك تكية العجايز الفقراء وقد بنيت



شارع حقاوين بمدينة تونس

عام ١٧٧٥ م . وبني الوزير المشهور يوسف صاحب الطابع حوالى عام ١٨٠٠ م
المسجد الذى يحمل اسمه فى ميدان الخلفاويين واعله أقيم فى موضع « المسجد
المعلق على الخلفاويين » كما يتضح من رواقه الخارجى المرتفع ، وبني فى
الحى نفسه نافورة الخلفاويين عام ١٨٠٤ داخل باب سيدى عبد السلام ،
وبني فى الطرف الآخر من المدينة حوضاً كبيراً للماء داخل باب اللواء .
وفرغ مولاه حموده باشا من بناء « دار الباي » فوق القصة بقليل ،
وقد وقف جهده على بناء الحصون والثكنات . ورأى أن يحمى تونس من
أهل الجزائر خاصة فطلب من مهندس هولندى أن يعمر أسوارها الخارجية
ولم يكمل هذا العمل من جانبه الجنوبى ، واستغرق من عام ١٧٩٧ م إلى
عام ١٨٠٤ م كما يستدل من الكتابات المنقوشة على الأبراج التى تكتنف
الأبواب . واستعيض عنها فى هذا الجانب بالمتاريس الأمامية التى بناها
على باشا وبجدران المنازل الخارجية التى يتكون منها خط دفاعى متصل .
وشيد حمودة فى عام ١٧٩٨ م الثكنات على طول الطريق المجاور لقصره
الخلوى البديع فى المنوبية ، وبني غيرها فى أخريات أيامه عام ١٨١٤ م فى
وسط سوق العطارين (وهى تضم الآن دار الكتب العامة ، وإدارة العاديات) .
وفى العهد نفسه شيدت ثكنات أخرى فى المدينة . فى شارع القشله ، أى الثكنة
(وهو الآن الجمعية الفرنسية للبر) وشارع الكنيسة (وهو الآن إدارة الأوقاف)
وشارع منكويت وشارع سيدى ابن زياد ، وأكبرها ثكنة الفرقة الأولى
(برنجى آلاى) . وقد بناها الباي حسين ابن محمود ثم أخوه مصطفى بالقرب

من المراكض في موضع المصلى القديمة . وبنى أحمد باى عام ١٨٣٩ مخزناً
للمدفعية خارج المدينة ، ويعد أحمد باى خالق « الجيش التونسى » .
وقد قنع بأن يطلب في مناسبتين (١٧٤٣ و ١٧٤٤ م) سبائكاً من
طولون لإصلاح عدة مدافع في مصنع للطوارىء . أما حمودة باشا فأنشأ
مسبكاً دائماً في جناح من قصر الحفصية يشرف عليه بعض الفرنسيين .
ثم نظم أحمد باى الدبابة التى يصنع فيها الخبز والزيت للجيش . والظاهر
أن هذه المشروعات العسكرية ، قد عملت على تحويل تونس إلى حامية
عسكرية ، وأخذت المحلة الأوربية في الوقت نفسه تحتل جانباً من المدينة ،
وكانت تنمو نمواً مطرداً لا يعوقها عائق بفضل احتلال الفرنسيين للجزائر
عام ١٨٣٠ م والإصلاحات التى قام بها البايات ، ففتح النصارى الدكاكين
وشيدت الكنائس ، وفتحت المدرسة الإيطالية في سوله عام ١٨٣١ م
والمدرسة اليهودية عام ١٨٤٠ م في مربرجو ، وكلية بورجاد عام ١٨٤١ .
وأصبح حى ميدان البورصة بأسره أوربياً خالصاً (وسمى حديثاً باسم ميدان
الكردينال لافيجرى) ، وكذلك الشارع الحالى للديوان القديم وشارع
جلاسييه وشارع القومسيون وأخذت المدينة الحديثة تتسع خارج الأسوار
متجهة ناحية البحيرة ، ومن ثم نقلت قنصلية فرنسة عام ١٨٦١ م إلى الدار
التي يشغلها الآن المقيم العام . ومع هذا فقد بقيت بعض القنصليات داخل
المدينة . وهى قنصلية إسبانيا (في شارع سيدى البونى) وقنصلية بريطانيا
العظمى (في ميدان الكردينال لافيجرى) وقنصلية إيطاليا (شارع زركون)

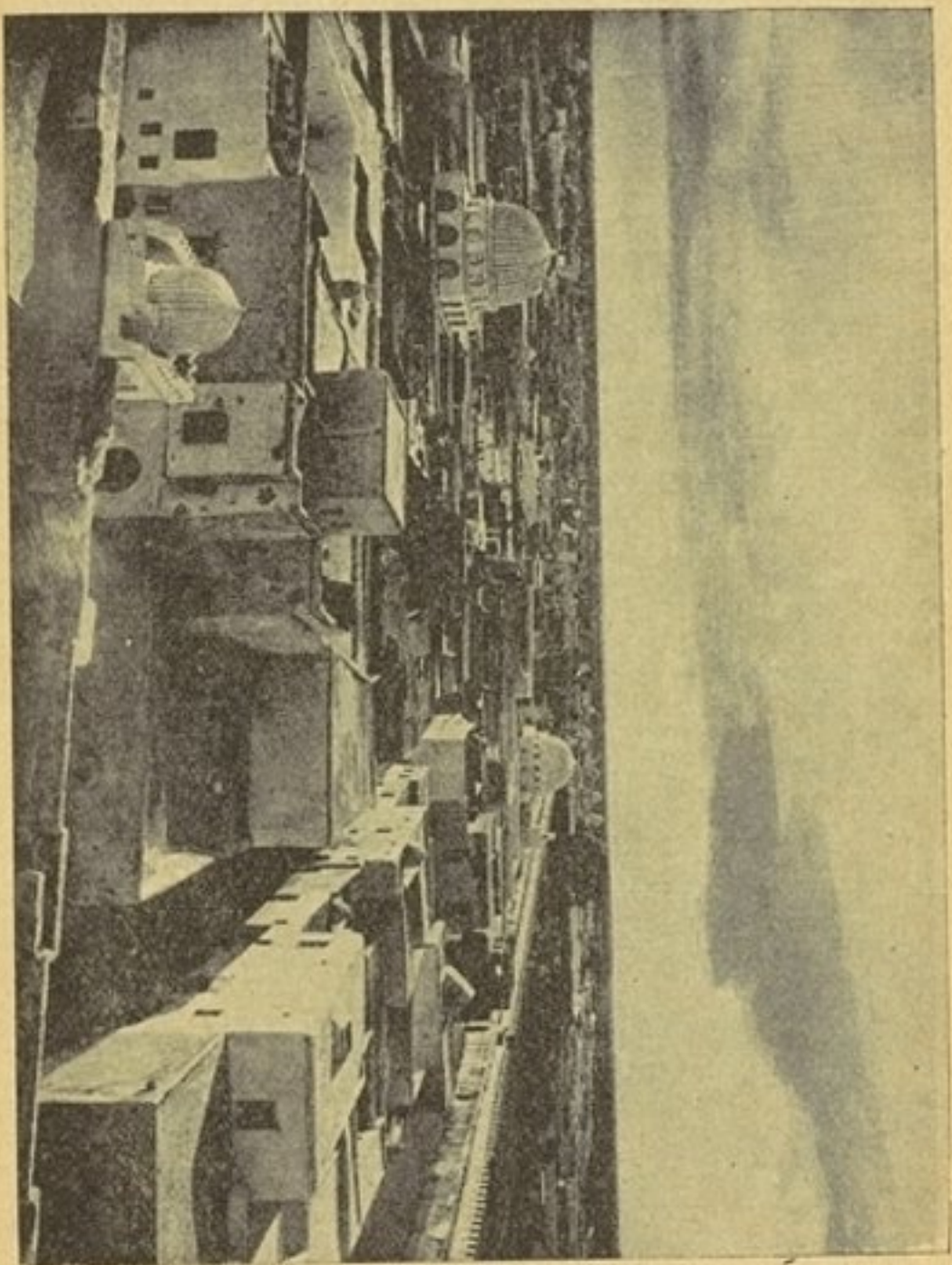
وقوى بأس الأوربيين حتى تأثرت به آخر الأمر إدارة المدينة نفسها .
وكان لكل من الربضين أيام الحفصيين شيخ يقوم عليه ، ولعلمهما كانا
تحت إشراف شيخ المدينة ، وقد بقي هؤلاء الشيوخ في عهد الأتراك ، وكانوا
يقومون على خفارة المدينة بعد أن تغلق أبوابها ليلاً تعاونهم جماعات من
السكان تتناوب العمل فيما بينها . ويتبع هؤلاء « المحركون » وهم شيوخ
الأحياء . وكانت شرطة النهار أيام الحسينية من عمل الدولتلى ، وكان يقوم
بمنصب رئيس البوليس فى القاعة المستطيلة المعروفة بـ « دريبة » فى شارع
سيدى ابن عروس . أما القصبة فكانت إدارتها منفصلة تحت إشراف أغا .
ومع ذلك فقد ألف مجلس بلدى عام ١٨٥٨ يضم رئيساً ووكيلاً وكاتب سر
واثنى عشر عضواً من الأعيان ، وكان يزود بالمال من ضريبة تفرض على الخمر
والكحول . وحل محل الدولتلى عام ١٨٦٠م « فريق » يرأس الضبطية .
وقد بذل جهد كبير لتساير المدينة العصر ، فمرر خط للبرق يصل بينها وبين
الجزائر وخط حديدى يصلها بحلق الوادى كما زودت المدينة بالمجارى ، وقام
المهندس الفرنسى كولان بجلب الماء إليها من زغوان . وحل برج الماء محل
الصهرىج المغطى الذى كان قائماً فى القرن السابق بجوار باب سيدى عبد الله .
وبنيت من أماكن العبادة زاوية سيدى إبراهيم الرياحى وأنشئ المعهد
الصادق (فى ثكنات شارع الكنيسة) نسبة إلى الباي محمد الصادق .
ثم بنى المارستان الصادق . وكان قصر الزورق هو الذى أقام فيه الدايات
أول الأمر (فى شارع القضاة) . وفى عام ١٨٧٦ عمر وزير من وزراء الباي

دار الحسين (وهو الآن قصر الفريق) الذى بنى فى القرن الثامن عشر ، وظل قصر خير الدين ، وهو قصر الحفصية القديم بعد توسيعه مقر المحكمة زماناً فى مستهل أيام الحماية (وهو فى شارع المحكمة) ؛ أما قصر مصطفى ابن إسماعيل فكان فى شارع الباشا ، وأصبح قصر الخازندار مارستان اليهود ، وهو الآن مهجور ، ومما يجدر ملاحظته أنه لما ثار أبناء الحسين فى وجهه على باشا فى منتصف القرن السابق ، عنى الباي بحى الخلفاوين الذى كان يسكنه « الحسينية » الموأون له .

وأحدث الاحتلال الفرنسى (من عام ١٨٨١ م) تطورات خطيرة فى تونس وتمتد المدينة الأوربية من باب فرنسا ، وهو باب البحر القديم ، إلى البحيرة حيث الأرصفة والمراسى ؛ ومن البلقدير إلى الجلاز ، ثم تمتد فى الحى الجنوبى داخل الأسوار وخارجها فتغطى روابى مونفلىرى ، والسور الخارجى باق إلى اليوم . أما سور المدينة فقد اندثر أو كاد ، ولم يبق منه سوى أبواب قليلة . وعمرت القصبة تعميراً كاملاً وهى الآن ثكنات للجند . وتشغل الإدارة الداخلية دار الباي ؛ وتشغل الإدارات الأخرى مع المعهد الصادق وقصر العدلية بنايات حديثة تمتد على طول شارع البنات من ميدان القصبة . وتسير مركبات الكهرباء (الترام) حول المدينة ، ولكنها لا تجوس خلالها . وقد بذلت الجهود لكى تحتفظ المدينة بطابعها الشرقى . وهناك بنايات تستعمل فى غير ما أنشئت له ، بيد أن المظهر العام للمدينة لا يزال كما كان منذ خمسين سنة ؛ وينحصر التعليم الدينى فى المسجد الكبير ، وقد عمرت

مئذنته تعميراً كاملاً عام ١٨٩٤م وأنشأ المقيم الفرنسى عليه المدرسة الخلدونية
فى سوق العطارين ليتعلم فيها فتيان المسلمين مبادئ العلوم الحديثة .

ولا تزال الحرف الوطنية تتجمع فى الأسواق ، لكل حرفة منها
« أمين » ؛ و يزور بعضها كثير من السائحين فتنشط حركة التجارة لأنهم
يبتاعون الأدوات « الشرقية » والعطور والبسط والسلع المصنوعة من الجلد ؛
و يصيح المنادون فى سوق الكتبيين وسوق البركة على الكتب والحلى .
وقد هجر الحى اليهودى الحقيق أهله الذين يستطيعون الإقامة بجوار ميدان
بوتيه أو فى المدينة الأوربية ، وسوف تقوم عن قريب فى هذا الحى
البنائات الحديثة والطرق المتسعة . أما المسلمون فهم على العكس من ذلك
يعيشون فى الأحياء الوطنية ، اللهم إلا بعض الأسر الغنية التى ابتنت لها
قصوراً ريفية فى آخر طريق باريس . ولا يفوتنا أن ننوه بازدياد سكان
الأرباض البعيدة من أوربية وإسلامية ويهودية ، وقد اتصلت فى الواقع
واندمجت فى مدينة تونس . وأعيد تنظيم المجلس البلدى بمقتضى المرسوم
الصادر فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٨٣ وألحق به مرسوماً عام ١٨٨٨ م ،
١٩١٤ م بخصوص المجالس البلدية للولاية ، ويتألف المجلس من رئيس
ووكيلين فرنسيين وسبعة عشر عضواً يعينون بمرسوم (ثمانية من الأوربيين
وثمانية من المسلمين ويهودى تونسى) . وارتفع عدد سكان مدينة تونس
فى تعداد عام (١٩٢٦) ، إلى ١٨٥,٩٩٠ نسمة ، منهم ٢٧,٩٢٢ فرنسياً
و ٥١,٢١٤ من الأجناس الأوربية الأخرى و ٨٢,٧٢٩ من المسلمين
الوطنيين و ١٣١ و ٢٤ من اليهود التونسيين .



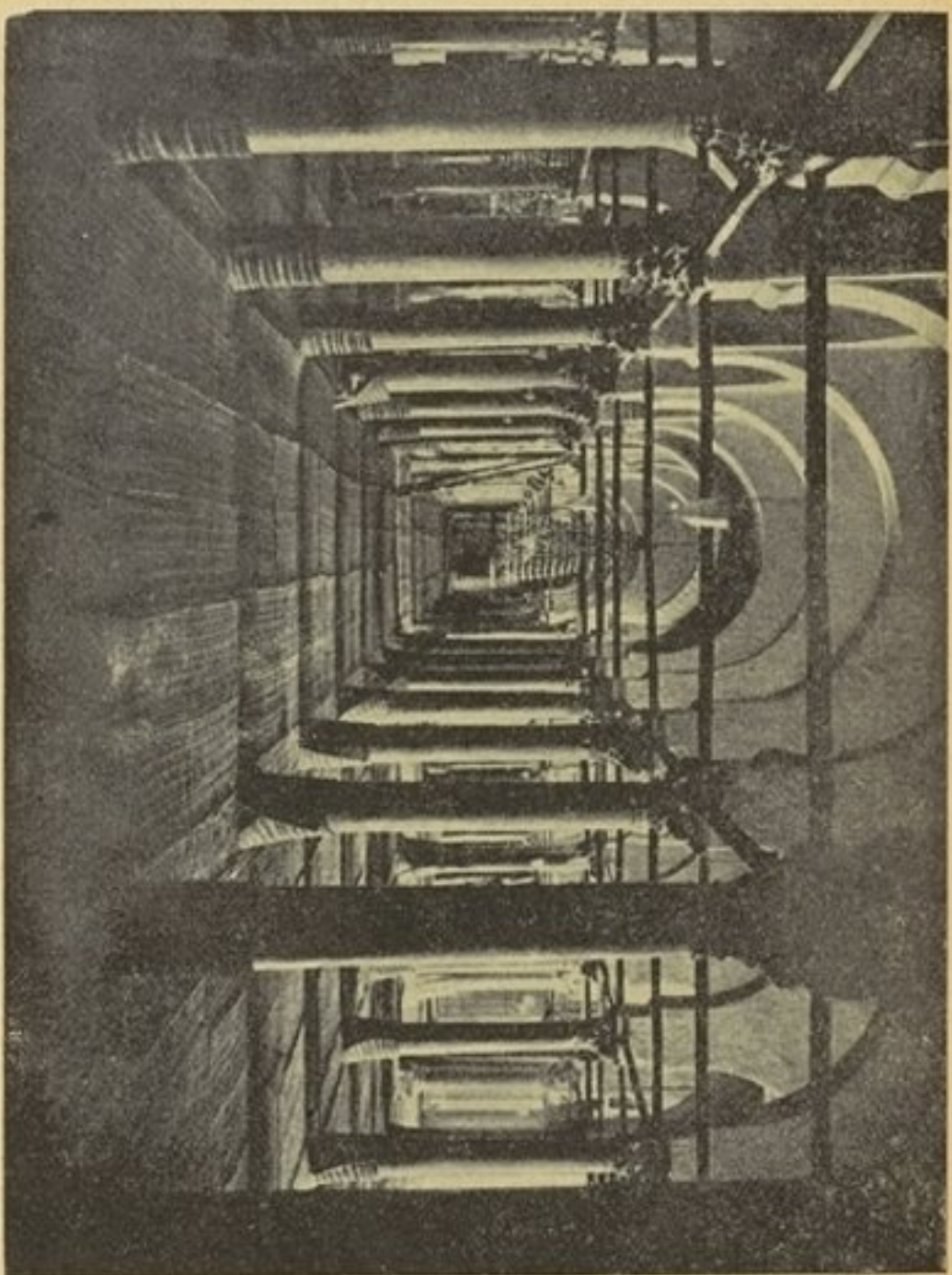
مدينة القاهره

القيروان

مدينة من أهم مدن تونس على مسيرة مائة واثنى عشر ميلاً جنوبى مدينة تونس وأربعين ميلاً غربى سوسة ويربط بينهما خط حديدى . وهى على خط عرض $35^{\circ} 40'$ شمالاً وخط طول $10^{\circ} 2'$ شرقاً . وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩١٠ م اثنين وعشرين ألفاً منهم ثمانمائة من الأجانب بينهم ثلاثمائة من الفرنسيين .

وترتفع القيروان مائتين وخمسين قدماً فوق سطح البحر وهى فى قلب سهل عظيم يخترقه نهر زرود ونهر مرجول الذى يغيض فى السبخات الملحة . ويفيض هذان النهران فجأة فتستحيل الأرباض إلى بحيرة تضرب مياهها أسوار المدينة . وتكثر غلة الأرض إذا غزر المطر . ويقول البكرى إن الأرض فى الجانب الغربى المعروف بفحص الدّارة تنبت فى بعض الأحيان مائة ضعف ما يبذر فيها ، ولكنها تبدو بالصحراء أشبه لأن تربتها مغطاة بطبقة ملحية ولا ينبت بها شجر أو عشب . وتتفاوت درجة الحرارة فى القيروان تفاوتاً كبيراً فهى فى الشتاء 24 و 8 وفى الصيف 2 و 120 ° (فهرنهايت) ومطرها ليس بالغزير ، فهو أربع عشرة بوصة فى السنة ، ومن ثم تقل فيها المسایل والعيون فيختزن السكان فى الصحارى ما يحتاجون إليه من ماء الشرب .

والقيروان في الواقع مدينتان ، الأصلية منهما محاطة بسور محصن من
الآجر له شرفات وأبراج مدوّرة ، وقصبة يحيطها ثلاثة آلاف وثلاثمائة
 وخمسين ياردة ، ويعقب ذلك ربض متسع يمتد ناحية الشمال والشمال
 الغربي ويعرف بربض جلاص نسبة إلى قبيلة تسكن المنطقة المجاورة ،
 وقد نشأ ناحية الجنوب في العهد الأخير حيّ أوربي صغير . وفي داخل
 المدينة شبكة من الدروب الضيقة الملتوية ، وفي المدينة نشاط تجاري صناعي
 مع أنها فقدت كثيراً من مكانتها الاقتصادية ، والصناعة فيها وطنية
 كصناعة البسط والأغطية الصوفية والنحاس والجلود من سروج وأحذية .
 واشتهرت القيروان فيما مضى بما شيد فيها من دور العبادة ، وأهمها مسجد
 سيدى عقبة الكبير ، وهو من أكبر المباني في إفريقية الشمالية وقد بنى
 مع المدينة نفسها ، ومن المباني الأخرى مسجد سيدى صاحب ، بنى في
 القرن الأول للهجرة وجدد بناؤه ووسع في القرن السادس عشر للميلاد ،
 ومسجد الأبواب الثلاثة الذي يعاصر المسجد السابق ومدرسة سيدى
 عبيد الغريانى التى أنشئت في القرن السادس عشرة وقد أخذوا مواد البناء
 لأقدم المساجد من سوسة وقرطاجنة ، ولذلك كان فيها خليطاً عجيباً من الفن
 البوزنطى والفن الشرقى ، ويتضح أثر الفن الشرقى في زخارف القيشانى
 والخشب وهى تماثل ما فى العراق وبغداد ، أما المباني الأحدث ففيها سقوف
 خشبية مقسمة وزخارف عربية يظهر فيها أثر أندلسى مغربى ، وفي مباني القرنين
 السابع عشر والثامن عشر أثر المهندسين والعمال الفرنجة وبخاصة الطليان منهم .



مسجد القهروان الجامع من الداخل

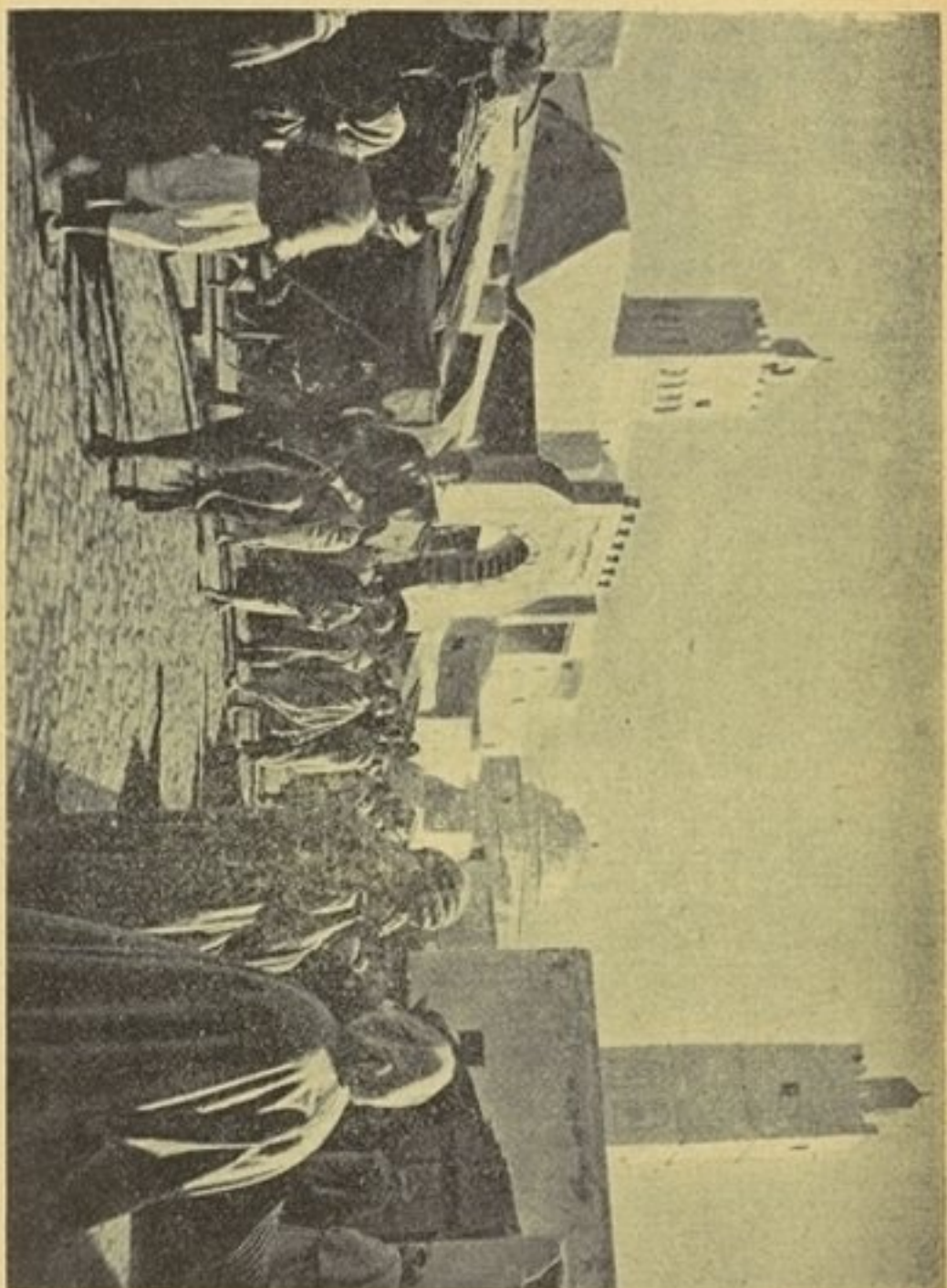
تاريخها : يرجع تاريخ القيروان إلى الفتح العربي ، أنشأها عقبة
ابن نافع سنة خمسين من الهجرة لتكون قاعدة أعماله الحربية ومخزناً لمؤناته
وليهرب بها قبائل البربر ، وقد زعموا أن عقبة قال إنه أرادها معسكراً
لجند الإسلام إلى آخر الزمان . وقد شيدت القيروان على أنقاض مدينة
حمودة أو قونية الرومانية ، أو بالقرب منها واستعمل العرب أنقاضها في
مبانيهم . واختير موضع المدينة على مسيرة يومين من البحر حماية للمسلمين
من الروم الذين ظلت المدن الساحلية بأيديهم . وقد أقام عقبة أول ما أقام ،
قواعد مسجده ، فقصرًا للحكومة ، ثم منازل لجنده وسوراً طوله ٢٧٥٠
ياردة . وقد روى الناس عن تخطيط المدينة كثيراً من الأساطير ، زعموا
أن موضعها كان أدغالاً كثيفة تمرح فيها الظباء والحيات ، أمرها عقبة
فاختفت واستلهم عقبة من حلم رآه ، مكان القبلة ومحراب المسجد ، وعين ماء
لا غناء عنها لجنده . وقد غضب الخليفة عليه فاستدعاه إلى المشرق عام ٥٥
من الهجرة ولما يتم بناء القيروان ، فخر بها خلفه دينار أبو المهاجر ، وبنى على
ميلين منها مدينة جديدة أسماها تيكروان ، فلما صفح الخليفة عن عقبة
وأعاده إلى إفريقية ، جدد بناء مدينته فأصبحت قصبة إفريقية الإسلامية .
ومقر ولايتها ، وقد تعرضت المدينة بعد وفاة عقبة لأحداث شتى . واحتلها
البربر في العام الرابع والستين من الهجرة بعد فتنة كسيلة ، وظلت في
أيديهم أربع سنين ، ثم استولى عليها الوفرجومة ونهبوها في فتنة الخوارج
واقترفوا فيها كثيراً من المظالم ففرق عنها سكانها . وما انقضى الشهر

الرابع عشر حتى جاء أمير هواره أبو الخطاب الإباضى فطرد الوفرجومة واستعمل على المدينة عبد الرحمن بن رستم سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة . وبعد أربعة أعوام انتصر ابن الأشعث على الخوارج وأعاد مقر الحكومة إلى القيروان . وقد حاول إصلاح ما أفسده البربر ، وعمل على تحصينها ، فسورها بحائط من الآجر عرضه اثنا عشر ذراعاً ، إلا أن ذلك لم يمنع قبائل الإباضية تحت إمرة أبي حاتم من حصار المدينة سنة ١٥٤ هـ ، فحبس بها عاملها عمر بن حفص ، وكان قد فرّ من طبنة ، ثم قتل أثناء الحصار ، وخلفه جميل ويقال حامد بن صقر ، فاستسلم للعدو وفتح له أبواب المدينة وقنع الفاتح بذلك حصونها . فلم تقع مذابح ، وترك الأهليون وشأنهم . ولم يطل عمر الخوارج بها سوى عام واحد ، استعاد المدينة بعده يزيد ابن حاتم ، فأعاد بناء المسجد الكبير ، وخص كل طائفة بسوق . ثم اتسعت رقعة القيروان وبلغت أوج عزها أيام الأغالبة ، وتنافس أفراد هذه الدولة في تجميلها بروائع الآثار ، وأكثروا فيها المباني النافعة .

فمد زيادة الله الأول ، وإبراهيم ، أنابيب الماء ، وأقاما الصهاريج بعد أن أصبحت الأحواض التي بنيت أيام الخليفة هشام ، لا تفي بحاجة الناس . ولم تندثر هذه الأحواض ، فقد رمم الفرنسيون أحدها ولا يزال يعرف بحوض الأغالبة . أما المسجد الجامع فقد بنى من جديد ، وكان مسجداً متواضعاً بناه عقبة ، فهدمه حسن بن النعمان ، ثم أعاد بناءه وزينه بأعمدة من الرخام ، جلبت من أطلال قرطاجنة وسرعان ما ضاق المسجد بالمصلين ،

فوسع عام ١٠٥ من الهجرة ثم جدد يزيد بن حاتم بناءه كله ، ماعدا المحراب ، ثم تقض زيادة الله الأول المسجد والمحراب جميعاً ، وأقام مكانه المسجد الحالى . ويقول البكرى إن تكاليف البناء بلغت ثمانين ألف مثقال من الذهب وأنتم إبراهيم بن أحمد عمل زيادة الله ، فدد البناء الرئيسى وابتنى فوق الصحن المتصل بالمحراب ، قبة تسمى قبة باب البهو ، طولها مائتان وعشرون ذراعاً ، وعرضها مائة وخمسون ، ويقسمها أربعائة وأربعة عشر عموداً إلى سبعة عشر صفحاً ، وأصبح المسجد الكبير يضارع أشهر آثار الشرق . وعمرت فى هذا العهد دور أخرى للعبادة ، كمسجد الأبواب الثلاثة ، ومسجد سيدى صاحب (مسجد البربر) ، ومسجد الأنصار ، وقد زعموا أن هذا المسجد بناه قبل دخول عقبة ، الصحابى رويفع بن ثابت .

وشيدت خارج المدينة مساكن الأمراء ، كرقادة والقصر القديم ، ويعرف أيضاً بالعباسية ، بناه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ ، على ثلاثة أميال شمال شرقى القيروان ، وجعله قصبة الإمارة ، وأقام فيه مع حراسه الزنوج ، ونشأت حول القصر مدينة مزودة بالحمامات والنزل والأسواق ، يحيط بها سور ذو خمسة أبواب . وعلى ميسرة منها قلعة تعرف بالرصافة . أما رقادة فكانت على أربعة أميال ناحية الجنوب الغربى وهى من آثار إبراهيم بن أحمد ، الذى اختار مكاناً عرف بطيب هوائه ، وبني فيه قلعة ، نشأت حولها مدينة هامة ، ذات أسواق وحمامات ، وبها بساتين وحدائق واسعة ، ومحيطها أربعة وعشرون ألف ذراع .



شارع من شوارع الفيروان

وكانت مدينة القيروان سوقاً تجارية كبيرة ، كما كانت مزاراً مكرماً وقصبة دولة قوية . اصطفت فيها حوانيت التجار على جانبي طريق مسقوف طوله نحو ميلين . وكانت مدينة علم ، للمالكية فيها حظوة ، وكثر فيها تلاميذ علماء أجلاء كأسد بن الفرات وابن رشيد وسحنون . وازدهرت فيها دراسة الطب وأنشأ فيها مدرسة نظامية ، اسحق بن عمران اليهودي ، طبيب الأمير زيادة الله الثاني ، وتلميذه اسحق بن سليمان .

وزال حكم الأغالبة ، وظلت القيروان على عزها القديم أيام الفاطميين وأوائل الزيرية ، رغم أن المهدي عبيد الله نقل مقر الحكومة إلى المهدية .

وقد لقيت المدينة ألواناً من البلاء إبان فتنة أبي يزيد . وفي عام ٣٣٣ هـ استولى عليها النكارية ونهبوها ، غير حافلين بتوسل الأعيان والعلماء الذين قدموا يناشدون الفاتحين رحمتهم . ثم استعادها الخليفة سنة ٣٣٤ ، فبنى على مسافة منها مدينة صبرة ، التي أسماها المنصورية ، إشارة إلى انتصاره على أبي يزيد ، واتخذها عام ٣٣٧ مقراً له . ثم جاء خلفه المعز ، فنقل إليها أسواق القيروان ومصانعها رغم تدمير الأهالي الشديد . وأقيم حول المدينة الجديدة سور له خمسة أبواب ، أهمها باب الفتوح يخرج منه الأمير إلى الحرب على رأس جنده . ولكن رقادة طمست معالمها بعد أن هجرها أهلها وخربها النكارية فلم يبق منها غير حدائقها . ونفقت تجارة القيروان والمنصورية طوال هذا العصر ، فازدهرت فيهما صناعة البسط والمنسوجات القطنية والصوفية وامتدت حول المدينة مزارع وحدائق . وزادت ثروة

الأهالى حتى إن عمال الفاطمية استطاعوا غصب أربعمائة ألف دينار منهم دفعة واحدة . ويروى البكرى أن المكوس التى تجبى يومياً عند باب من أبواب المنصورية كانت تبلغ ستة وعشرين ألف درهم . وشكا أهل القيروان ظلم الفاطميين ، وظل جمهورهم على مذهب أهل السنة ، وتجلى سخطهم فى معارك دموية وقعت أوائل عهد الزيرية ، وفى عام ٤٠٧ هـ ، شبت فتنة قتل فيها ثلاثة آلاف شيعى ، ونهبت العامة مدينة المنصورية . وقابل أهل القيروان خلاف المعز مع الفاطميين بالترحاب .

وأدت هذه الفتن إلى فتح الهلالية إفريقية ، فلقيت منه القيروان بلاء شديداً . فقد أمر المعز جنوده باخلاء المدينة بعد هزيمة حيدران ، فنهبوها قبل انسحابهم إلى المنصورية : ثم أعاد بناء أسوار القيروان فبلغ طولها ٢٢ ألف ذراع ، وأحاط المدينتين بسورين بينهما نصف ميل ، ورغم كل هذه التحوطات ، اشتد هجوم الهلالية وازداد عنفاً ، فهجر القيروان فريق من أهلها وعزم المعز على الجلاء عن المنصورية والتراجع إلى المهديّة ، فدخل العرب القيروان وأذاقوها العذاب . محوا كل ما فيها من جمال وجلال ، ولم ينج من شرهم شىء من ذخائر أمراء صنهاجة ، وعاثوا فى المدينة سلباً وتدميراً وتفرق الأهليون أيدي سباً ، فذهب بعضهم إلى مصر ، وهاجر آخرون إلى صقلية والأندلس ، ورحل رهط كبير إلى فاس .

ولم تفق قصبة إفريقية من هذا البلاء ، فقد نهبتها الهوارة مرة أخرى سنة ١٠٦٠ م ، وتنازعها الزيرية والقائد ابن ميمون ، الذى حاول أن يقيم

فيها إمارة مستقلة لنفسه ، مستعينا ببني حماد ، وظلت على الرغم من هذا في يد العرب ، عزلاء لا تدفع عادية البدو . وفرض هؤلاء المكوس على كل شيء ، وأصبح أهلها قلة ، ساءت صنائعهم وكسدت تجارتهم ، وعمر عبد المؤمن جانباً منها ، ولكنها سارت في طريق الاضمحلال بسرعة الخطى أيام خلفائه والحفصية من بعدهم ، وكادت تقفر المدينة في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، ولم يعد يسكنها سوى من لجأ إليها من الفلاحين . وأخذ عدد سكانها في الزيادة أوائل القرن السادس عشر ، ولكنها ظلت على بؤسها . وجار أمراء تونس على أهل القيروان ، فلم تهدأ لهم ثورة ، بل نفضوا عن كواهلهم حكم الحفصية عند ما قبل هؤلاء حماية الاسبان وأمروا عليهم سيدي عرفة الشبي . ولم يستطع مولاي حسن — رغم مساعدة الأسبان — التخلص من هذا الأمير الذي عضدته قبائل العرب وأتراك القرصان درغوث .

ونزل بالقيروان إبان الحكم التركي ما نزل بغيرها من النكبات ، وأراد الباي مراد عام ١٧٠١ عقاب أهلها على فتنهم نخرب الأسوار والدور ولم يبق فيها إلا المساجد والزوايا ، بينما بذل حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية جهوداً عظيمة لتعمير القيروان ، فجدد السور الحصين وعمر أكثر من خمسين مسجداً ، وشيد لنفسه قصراً يقيم فيه إذا خرج رجاله إلى الجريد ، لجباية المكوس . وعطف الأهلون على الباى ونصروه على ابن أخيه على باشا ، الذى لم يستطع الاستيلاء على القيروان إلا بعد حصار دام خمسة

أعوام . وهدمها الأمير الظافر مرة أخرى ، ثم أعيد بناؤها فكانت عام ١٧٨٤ أعظم مدينة بعد تونس ، بل كانت أفخم منها بناء ، وأنظف طرقا .

ونشطت فيها التجارة والصناعة ، وأعفى أهلها من الضرائب لولاء آبائهم للباي حسين ، واحتفظت القيروان بحرمها الدينية وظل سكانها على عدائهم للنصارى .

ولما أبرمت معاهدة باردو عام ١٨٨١ م التي جعلت تونس تحت الحماية الفرنسية ، ظلت القيروان معقلا من معاقل الحركة الوطنية ، فسيرت لها فرنسا ثلاثة جيوش تحت قيادة الجنرال سوسييه ، زحفت من تبسة ، وتونس ، وسوسة ، وتلاقت أمام أسوار المدينة فاحتلتها بلا قتال في التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٨٨١ م .

المهدية

مدينة على ساحل تونس الشرقى كان المؤرخون الفرنجة فى العصور الوسطى يسمونها مدينة إفريقية . وقد بنيت بين سوسة وسفاقس فى شبه جزيرة صغيرة ينتهى عندها رأس إفريقية ويصلها باليابسة برزخ ضيق كما يتصل الكف بالمعصم وكان فى موضع المدينة دون شك محلة فينيقية وقرية رومانية . وقد سميت بالمهدية نسبة إلى المهدي عبيد الله الشيعى الذى أسسها وحصنها سنة ثلاثمائة من الهجرة ، بعد أن قرأ الطالع وأنبا بالآخطار التى قد تهدد الفاطميين . وكان بها سور من الحجارة الصغيرة يمتد ناحية الجنوب على طول الشاطئ ، ولا تزال منه أبراج قليلة باقية إلى اليوم . وكان السور يحمى الميناء ، وهو ثغر فينيقى قديم اكتشف بين الصخور تدخل إليه السفن من باب كبير على جانبيه حصنان منيعان . وعلى مسافة قليلة دار الصناعة البحرية ، وكان السور منيعاً محصناً بأبراج مدورة ومربعة وأمامه من جانب البرزخ حائط يخترقه باب لا يزال إلى الآن قائماً وبأعلى موضع فى شبه الجزيرة قصبة تركية قديمة ربما بنيت مكان قصر المهدي ولعل قصر ابنه القائم كان أمامها ناحية الغرب . ومن آثار الفاطميين بالمدينة كذلك مسجد كبير بنى بالقرب من البحر لا تزال آثاره باقية إلى الآن . وبجواره دار المحاسبات ووراء شبه الجزيرة ضاحية زويلة

وموضعها معروف إلى اليوم ، وقد اكتشفت عندها مخلفات قديمة من بينها آثار من الزجاج .

وبعد أن ترك المهدي رقادة القريبة من القيروان ذهب سنة ٣٠٨ هـ ليقيم بالمهدية . وازدهرت المدينة لما صارت قصبة الدولة وأصبحت كما يقول ابن عذارى أعظم مدينة في بلاد المغرب . وقد خرج من توزر أبو يزيد أحد ثوار الخوارج وأصبح سيداً على بلاد إفريقية بأسرها ، وظل يحاصر المهدية خمسة أشهر وبها القائم بن عبد الله ، وانتهى الحصار بالفشل فكان ذلك إيذاناً بزوال دولة الخارجي . وكان الفاطميون يلجأون إلى المهدية إذا أهدقت بهم الأخطار ، كذلك كانت بعد قرن من الزمن ملجأ أفراد الزيرية عندما ذهبت بملكهم غزوة الهلالية . وحدث عام ٤٤٩ هـ أن المعز الزيري هجر القيروان إلى المهدية ومنها خرج وخلفاؤه بعده ينشدون إعادة دولتهم ، وكذلك جعلوها قاعدة لغاراتهم البحرية .

وفي المهدية تهيأت الأسباب للقرصان فكانت أمنع معقل للقرصنة التونسية ، وهكذا ظلت إلى الزمن الحديث . وأغار على المدينة أهل صقلية وبيزة وحنوة رداً لغارات القراصنة المسلمين . وفي عام ١٠٨٧ م سقطت المدينة في يد القوات المسيحية المتحالفة واستولى عليها النورمان مرة أخرى سنة ١١٤٨ م ثم حوصروا فيها براً وبحراً حين فتح عبد المؤمن الموحدى إفريقية وعادت المدينة إلى قبضة المسلمين . ولكن النورمان استولوا عليها مرة أخرى ونهبوها . ثم عقدت معاهدة صلح مع وليم الثانى ملك صقلية

واستطاع النورمان الاتجار معهما . وأتى عهد بنى غانية أمراء المرابطين فاستولى على المدينة مغامر ادعى الخلافة اسمه عبد الكريم الرغراغى وأدت هذه الفتن إلى استعمال أحد الموحدين من بنى حفص على إفريقية ومن ثم أصبحت المهديّة إحدى حواضر المهديين ، وكان يعهد بحكمها فى الغالب إلى أحد أبناء سلطان تونس . وأدى نشاط القرصنة المستمر إلى قيام حملة من جنوه سنة ١٣٩٠ م يؤيدها شارل السادس ملك فرنسا الذى سير إليها أسطولاً وفرسانه . وقاومت المهديّة ولكنها أجبرت على دفع الجزية للنصارى . ولما غزا شارل الخامس تونس احتلت المدينة حامية إسبانية . وفى العام التالى استولى عليها القرصان درغوث ثم أسره أسطول أندريا دوريا ولكنه أطلق سراحه فعاد إلى المدينة وثبت قدمه فيها . وفى سنة ١٥٥٠ م حاصر دوريا المدينة حصاراً مشهوراً وانتزعها من درغوث وعهد شارل الخامس بأمرها إلى فرسان مالطة فأبوا ، وبعد قليل عادت المهديّة إلى سلطان المسلمين ونهضت من كبوتها وظلت تحت الحكم التركى إلى القرن التاسع عشر وكرأ للقرصنة ومشاراً للعرب فى قلوب تجار النصارى وبقيت كذلك تسعمائة عام .

وهى الآن بلدة صغيرة يسكنها حوالى عشرة آلاف نسمة يرتزقون من صيد السمك وعصر الزيوت

بنزرت

مدينة على الشاطئ الشمالى لبلاد تونس ، تبعد أربعين ميلا ناحية الشمال الغربى من مدينة تونس . و بنزرت على خط طول ٥٣° شرقى جرينوتش وخط عرض ٣٧° شمالا .

وسكانها خمسة وثلاثون ألف نسمة ، وهى بين البحر وبين بحيرة متوغلة فى البلاد إلى مسافة أحد عشر ميلا تبلغ مساحتها ٣٥ ميلا مربعا . وموقع بنزرت يسيطر على المضيق بين صقلية والشاطئ الإفريقى ، ومن ثم أصبح له شأن عظيم من الناحية الحربية .

وبنزرت فى موضع المدينة الفينيقية هيودير توتوس التى أصبحت من ممتلكات قرطاجنة واستولى عليها الرومان بعد ذلك وجعلوا منها مستعمرة يحكمها اغسطس . وخربها القوط ثم سلبها معاوية بن حديج عام ٤١ هـ الموافق ٦٦١-٦٦٢ م ، واستعادها الروم وظلت فى حوزتهم أمدا وجيزا ثم استولى عليها آخر الأمر حسان بن النعمان وقت أن استولى على قرطاجنة . وذكر ابن حوقل فى القرن الثالث الهجرى أنها قصبة الكورة البحرية سطفورة ، وإن كان الناس قد هجروها وقت ذاك فأصبحت خرابا بقلعا . وأفاقت المدينة من كبوتها ، فكانت أيام البكرى محاطة بسور من الحجر وفيها مسجد جامع وأسواق ، وتروج فيها تجارة الأسماك . وكانت تشرف على المدينة قلعة يحتمى الأهليون

فيها من غارات الروم وينزوى فيها الذين يقفون حياتهم على العبادة . وكان بها في ذلك الوقت مرسى يعرف بمرسى القبة . وروى الإدريسي أن بنزرت مدينة نافقة التجارة وكثيراً ما روعتها الفتن والغارات التي اجتاحت بلاد تونس . وأوقعها الغزوة الهلالية في يد أفاقى عربى يدعى الورد اللخمى فاستقل بها . ودانت لعبد المؤمن عام ١١٦٠ م وغزاها يحيى بن غانية المرابطى فيما بين عامى ١٢٠٢ — ١٢٠٣ م . ثم ركدت أحوالها إلى القرن السادس عشر على الرغم من وفود العرب من الأندلس وبناء ضاحيتهم فيها . وقد وصفها الحسن بن محمد الوزان الزياتى بأنها بليدة أهلها فقراء مساكين .

وكثر القرصان فى هذا الثغر إبان القرن الخامس واستفحل أمرهم حتى رأت الدول المسيحية أن تعمل على الوقوف فى وجههم . فظهرت حملة فرنسية جنوبية بقيادة كبير أساقفة سالرنو أمام بنزرت عام ١٥١٦ م ، ولكنها عجزت عن الاستيلاء على المدينة . وأراد أهل بنزرت الانتقام فما إن أصبح خير الدين سيد تونس عام ١٥٣٤ م حتى نفضوا عنهم سلطان بنى حفص وخضعوا له . بيد أن شارل الخامس استولى على بنزرت فى العام التالى بعد استيلائه على تونس ووضع حامية بها ، ثم عمد توطأ إلى تخريب حصونها ، فأعاد الأسبان بناءها بعد ذلك ، وشيدوا قلعة أخرى سموها « قلعة أسبانيا » ، لا تزال موجودة إلى اليوم . وانتهى الحكم الأسبانى للمدينة عام ١٥٧٢ م باحتلال الترك لها . وكانت بنزرت من أقبح معاقل قرصان البربر صيتاً ، فبكم نهبوا شواطئ صقلية وإيطاليا وهاجموا سفن

الدول النصرانية الكبرى على الرغم من مراكب فرسان مالطه . وكان في معتقل بنزرت عشرون ألف أسير من النصارى .

وقد عقدت فرنسا في نهاية القرن السابع عشر العزم على امتشاق الحسام بعد أن فشلت مفاوضاتها معهم ، فضرب دوكوش المدينة بالقنابل عام ١٦٨١ ، وعام ١٦٨٤ م . ولم يجد الفرنسيون كذلك بدا من ضرب المدينة ثانية بالقنابل في القرن الثامن عشر ، فتم ذلك على يد عمارة بحرية فرنسية يقودها أمير البحر ده بوفيز في اليومين الرابع والخامس من يولييه عام ١٧٧٠ م ، ثم على يد أمير البحر البندقي ايمو الذي كاد أن يخرب المدينة تخريباً تاماً عام ١٧٨٥ م . وأخذت بنزرت تضمحل في القرن التاسع عشر بإخضاع القراصنة وامتلاء الثغر بالبطائح .

ولما احتل الفرنسيون بنزرت في أول مايو سنة ١٨٨١ م عند بداية الحملة على بلاد تونس وجدوها بليدة خيم عليها البلى تخترقها دروب مليئة بالرمال . وتغيرت معالمها وأصلح الكثير من شئونها منذ بسطت الحماية الفرنسية على البلاد . فامتلاً جزء من القناة القديمة بالماء وحفرت قناة أخرى بين البحر والبحيرة تسمح للسفن الكبيرة بالسير فيها ، وشيدت فيها ميناء صالحة ممتدة في البحر ، وقامت العماثر على شواطئ البحيرة وبنيت دار للصناعة في سيدى عبد الله على مسيرة عشرة أميال من البحر . وأسست حصون على المرتفعات المحيطة بها لتزود عنها عادية المعتدين . ثم بنيت آخر الأمر مدينة جديدة بين المدينة القديمة والقناة سرعان ما ازدهرت ، وإن لم تحقق بعد الآمال المعقودة عليها في زيادة سكانها ورواج تجارتها .

سفاقس

سفاقس أو سفاقص مدينة في تونس على الشاطئ الشرقي جنوبي خليج قابس ، في مكان بلدة تبرورة القديمة . وأنشئت المدينة على مسطح من الأرض ، وكانت خطتها منظمة إلى حد بعيد . وقد نشأ بجوارها ربض أوربي وهي مستطيلة الشكل ، تتقاطع شوارعها تقاطعاً عمودياً . وبنى في وسطها المسجد الكبير حوالي سنة ١٢٧٥ هـ وأعيد بناؤه في نهاية القرن العاشر وأصلح بعد ذلك مراراً .

وقد بنى أيام الأغالبة سور من الطين والآجر ، ثم رمم ما تصدع منه بالحجر ويقول البكري إنه بنى بالحجر والآجر معاً ، وكان ينفق على إصلاحه الأمراء والمحسنون . واكتنف هذا السور أبراج مربعة ويصفه التجاني بأنه حائط مزدوج .

وكانت سفاقس في إبان الفوضى التي أعقبت الغزوة الهلالية حاضرة إمارة صغيرة مستقلة تحت حماية العرب ، وقد استولى عليها روجر الصقلي سنة ١١٤٨ م ، ثم استعادها عبد المؤمن بعد إحدى عشرة سنة فققدت بذلك شيئاً كبيراً من عظمتها الغابرة . وكثيراً ما كان العرب يتلفون ما يحيط بالمدينة من مزارع .

وكانت سفاقس قبل الغزو مركزاً اقتصادياً له شأنه ، وكانت إحدى

المناطق الهامة لزراعة الزيتون ، وكانت سفن المسلمين والنصارى تحمل منها الزيت وبخاصة إلى إيطاليا . وفي القرن العاشر أسس أهل پيزة فندقا بها ، وكذلك اشتهرت سفاقس بصناعة النسيج ، وكان صيد السمك وسيلة هامة من وسائل الرزق لأهلها .

وفي عام ١٨٨١ م كانت سفاقس أحد المعاقل القليلة التي قاومت الاحتلال الفرنسى فسارت إليها قوة لضربها بالمدافع . وأخذت المدينة بعد ذلك تتمتع برخاء جديد ، ويسكن المدينة خمسة وسبعون ألف نسمة ، ويصدر منها الأسفنج الذى يستخرج من خليج قابس ويحيط بها نطاقان من الحدائق وأحراج من الزيتون تشغل ثلاثين ميلا مربعا ويزرع الزيتون فيها بوسائل تقدمت إبان القرن التاسع عشر .



واحة قابس

قابس

قابس حاضرة ناحية أَرَد ، على خط عرض ٥٨° ٥٢' ٣٣" شمالا ،
وخط طول ٦° ٤' ٦" شرقا . وتبعد ثمانين ميلا جنوبى سفاقس ومائتين
وخمسين ميلا جنوبى مدينة تونس ، وهى على الشاطئ الغربى لخليج قابس
بجوار برزخ صخرى يفصل البحر عن شط الفجج . وقابس ثلاث منازل :
المدينة ، ور بـض أوربى ، ثم قرى جره وشنين ومنزل . والر بـض الأوربى
على الضفة اليمنى لنهر قابس يبعد عن البحر نصف ميل . ومصب النهر ميناء
يصلح لرسو السفن الصغيرة . أما الكبيرة فترسو فى البحر بميناء غير أمين
ضحل فى مواضع ، يعلو فيه المد تسع أقدام . والنقل فى الميناء قليل ، فقلما
تربو الصادرات والورادات على ٢٥ ألف طن ، وتتراعى أحياء الوطنيين على
طول نهر قابس ، الذى يعلو ثمانية أميال فوق مستوى البحر ، ويسقى واحة
جميلة شتان بين خضرتها اليانعة والجذب الغالب على ما جاورها . وهناك
حدائق واسعة فيها مائة وثلاثون ألف نخلة ، ومائتا ألف شجرة ، ومساحتها
سبعة آلاف فدان ، منها ثلاثة آلاف يروىها النهر . ويوزع الماء عليها
بوسائل آلية بعضها قديم وبعضها حديث . ونخيلها بالغ الجودة . أما ثمره
فليس بشيء ، وتطيب فيها أشجار الفاكهة . فكانت واحة قابس تعجب

الناظرين . و يصفها الشيخ التجاني في القرن التاسع عشر بأنها دمشق الصغرى
وجنة الله فى أرضه . ولكن سكنى الواحة غير صحى ، لذلك بنيت مساكن
الناس خارج الحدائق فلا يقيم بها إلا بعض الزوج . و وراء أحراج النخيل
بقاع صحراوية قد تصلحها وسائل الرى . وقابس مدينة بحرية صحراوية
بمظهرها وموقعها الجغرافى . وقديماً كان فى موضع قابس مدينة تكاب
التي أسسها الفينيقيون ، ثم انتقلت إلى أهل قرطاجنة ، ثم إلى الرومان ،
وقد استعملت أطلالها فى بناء مدينة قابس . ولا يعلم كيف آلت المدينة إلى
العرب . ولما غلب الفاطميون على إفريقية ، ولى عليها نعمان السكتامى ،
وظل أحفاده يحكمونها إلى زمن البكرى . وقد ازدهرت قابس أيام الفاطمية
والزيرية ، وأشاد ابن حوقل بخصب واحتها ، وجودة حريرها وصوفها ،
ورواج تجارتها وكثرة التجار الوافدين عليها . وأضاف البكرى أن المدينة
كانت محاطة بسور من عظيم الصخر ، وبها مسجد نفم ، وفنادق وأسواق .

وكان سكانها خليطاً من العرب والأفريق ، ونزلت أرباض المدينة
قبائل مختلفة من البربر ، غلاظ أجلاف ، تمسكوا بمذهب الإباضية ، وهم
فى نظر ابن حوقل ، قوم أشرار خالطت دينهم شوائب من الزندقة . وجاءت
غزوة الهلالية إلى قابس وما جاورها بدم عربى جديد . ويروى ابن خلدون
أن الخليفة المستنصر وهب قابس قبيلة زغبة عندما سیر الهلالية لقتال

السلطان الزيرى . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنها تدل على أن قبيلة زغبة استقرت فى قابس بعد أن هزمت المعز الزيرى على نجد حيدران ، بمعاونة رياح وعدى وجشم . وأنشأ أبو جامع أحد أمرائهم دولة هناك ظلت مستقلة إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ولما احتل أسطول صقلية مدينة المهدية ، دانت قابس للملك صقلية ، حتى غلب عليها عبد المؤمن فنفى آخر أمراء بنى جامع إلى مراکش .

ولقى الموحدون عناء فى بسط سلطانهم على قابس ، فقد حاول أهلها منذ أواخر القرن الثانى عشر رفع نير الموحدين ، ونصروا بنى غانية على خلفاء عبد المؤمن ، فدانت المدينة لعلى بن غانية وحليفه قرقوش ثم استعادها المنصور خليفة الموحدين عندما هزم هذا المغامر وحليفه عند الحمة . وسرعان ما أعاد فتحها قرقوش ، ثم طرد منها مرة أخرى ، ولكن يحيى بن غانية ثبت قدمه فيها ، ولم تعد إلى الموحدين إلا عام ٦٠١ هـ على يد الخليفة الناصر ، وعلى الرغم من هذا كله لم تخلص لهم نيات أهل قابس . وكانوا كذلك فى القرنين الثالث والرابع عشر ينزعون إلى الاستقلال عن الحفصيين ، فخرج أمراؤها من بنى مكى على سلطان تونس ، ولم يكد الحفصيون يسيطرون نفوذهم عليها حتى عاود أهلها الثورة إثر غارات المرينية على إفريقية ، وأيقظ الفتنة من جديد ، سنى ١٣٧٩ ، ١٣٨٧ ، رجل من بنى مكى

يدعى عبد الوهاب . وأراد أبو العباس أن يضع حداً لهذه الفتن فاجتاح الواحة واجتث نخيلها ، وما انقضى قرن من الزمن حتى ثارت فتنة أخرى دلت على ما فطر عليه السكان من شغب .

ويظهر أن غزوة الهلالية لم تحدث في قابس ما أحدثته في سائر البلاد ، فقد وصفها الإدريسي حينذاك بأنها مدينة ذات شأن تكثر السلع في أسواقها ، وظلت تجارة البحر نافقة طوال القرون الوسطى ، فاجتذبت التجار إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وكثيرين من النصارى ، كما سمح لأهل ييزا بالتجار فيها ، وكان قبر الصحابي أبو لبابة الأنصاري ، مزاراً يكثر قاصدوه . وقد نلاحظ من وصف التجاني لها أن بوادر الانحطاط ظهرت عليها منذ أوائل القرن الرابع عشر ، إذ خربت مبانيها كقصر العروسين الذي بناه رشيد بن جامع في القصبة ، وهدمت المنارة التي ذكرها البكري .

وساءت أحوالها في القرن السادس عشر ولم تكن أحسن حظاً في أيام الترك ، وإن بقي ثغرها يصدر ما تأتي به القوافل من تجارة السودان . واحتل الفرنسيون قابس عام ١٨٨١ ، وظهرت بوادر الفتن في جنوبي تونس بعد انتهاء معاهدة قصر سعيد .

ولما ضربت سفاقس بالمدافع سيرت جيوش الفرنسيين إلى قابس ،

فقاتلهم أهلها ، وسلمت جره ومنزل في ٢٣ يوليو ، بلا مقاومة .
وعسكر الفرنسيون في رأس الوادي ليتحكموا في النهر الذي تعتمد الواحة
عليه ، فلما استتب السلام ، نشأت مدينة أوربية بين الواحة والبحر ،
ومنذ ذلك الحين صارت قابس مقراً للقيادة العسكرية لمنطقة تونس
الجنوبية ، ومركزاً للإدارة المدنية . وفشلت الجهود التي بذلت لاسترجاع
مكائنها الاقتصادية بإعادة القوافل إليها بعد أن انتقلت إلى طرابلس
منذ الاحتلال الفرنسي .



واحة توزر

توزر

مدينة في جنوبي تونس على مسيرة مائتين وثلاثين ميلا إلى جنوب الجنوب الغربي من مدينة تونس ، وعلى مسيرة مائة وعشرين ميلا غربى قابس ، وهى على خط عرض ٤٨° ٥٤' ٣٣" شمالاً وعلى خط طول ٨° ٨' شرق جرينتش .

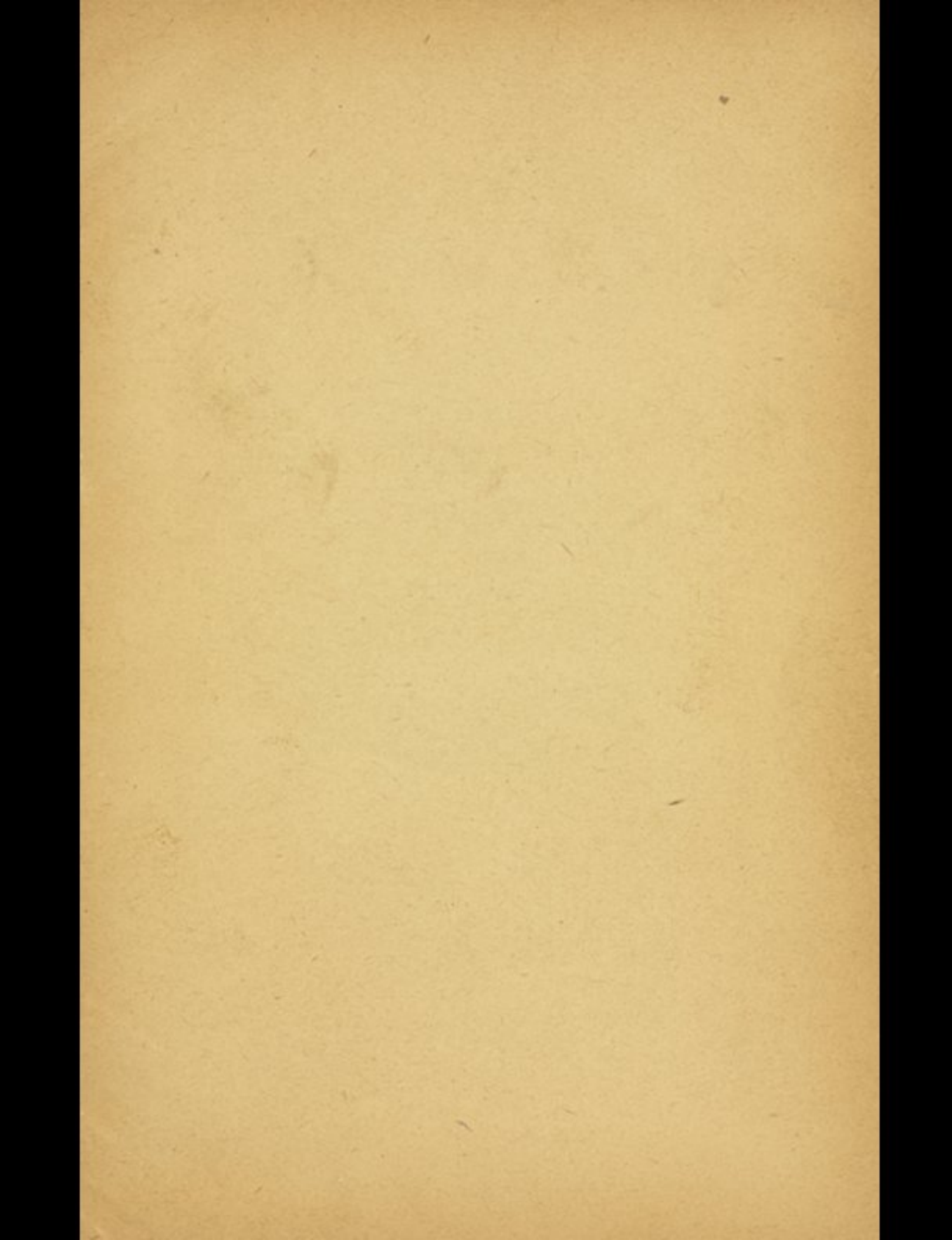
وتوزر أهم موضع بالجريد وهى على المضيق الذى يفصل بين شط الغرس فى الشمال وشط الجريد فى الجنوب ، وهى وتلاصق هذا الشط . وهى مدينة وقرى متناثرة فى الواحات الممتدة جنوباً على مساحة مقدارها أربعة أميال مربعة . ومباني المدينة فى نظام رتيب ، وغالب البيوت مبنية من الآجر المصفف على أشكال هندسية . أما المساكن فى الواحات فهى أكواخ مبنية من جذوع الأشجار وسعف النخيل ، والأهالى يصنعون البسط والأغطية من الصوف والحريز ، بيد أنهم يعتمدون فى معاشهم على بساتينهم وأحراج نخيلهم . ويعود الفضل فى خصوبة الواحات ، وهى أغنى بقاع الجريد ، إلى كثير من العيون البالغ عددها أربعاً وتسعين ومائة عين ، تتفجر غربى كشبان الرمال ثم تتحد فتؤلف جدولاً ينحدر نحو الشط . وتوزع المياه للرى بوسائل وصفها البكرى فى مصنفه « مسالك الأبصار » ولا تزال هذه الوسائل تستعمل إلى اليوم . ويخرج من أشجار النخيل التى يبلغ عددها

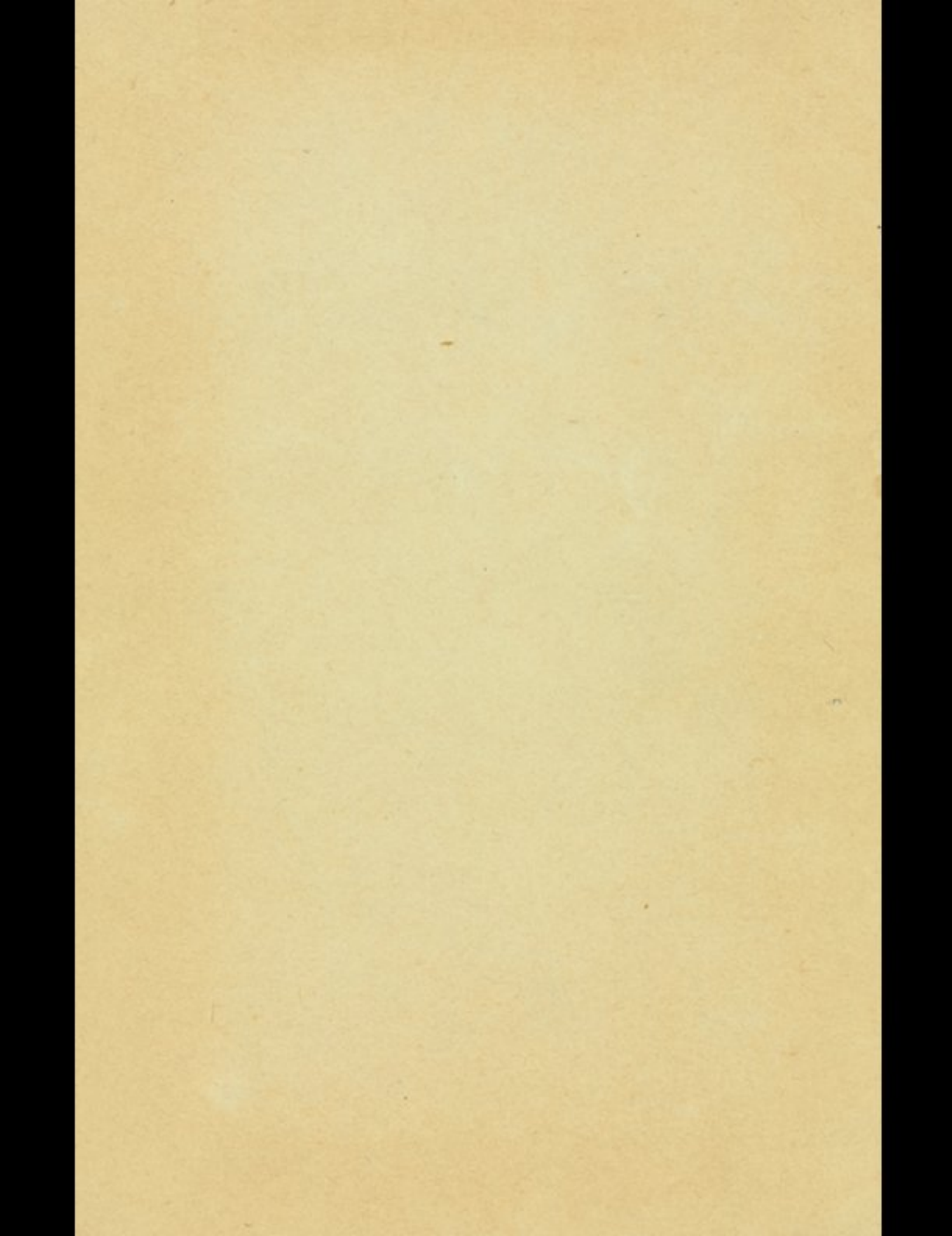
حوالى ٢٢٨ ألف نخلة ، تمر مختلف أنواعه ، وبخاصة النوع المعروف بـ « دقلت نور » . وقد زاد قدر ما تصدره توزر زيادة ملحوظة بعد ما وصلتها سكة الحديد بسفاقس وبقية بلاد المملكة . والسكان بربر مستعربة ، وعدد سكان توزر نفسها ١١٠٥٦ و١١ نسمة منهم ٧٢٣ و١٠ مسلمون ، ١٨١ يهودياً و ١٥٢ من الأوربيين وذلك وفق إحصاء ١٩٢٦ . وتوزر مدينة عتيقة . وأنشأ الرومان بالقرب من موضع بلدة الحدر مدينة وأرباضا لا تزال أطلالها تشهد إلى الآن ومنها قاعدة مئذنة المسجد وبئر وآثار أعمدة وبقايا قصور ... الخ ثم احتلها الوندال واستعادها الروم . وليس من شك أن الفاتحين الأول من العرب قد نهبوها ثم سقطت في يدهم آخر الأمر في نهاية القرن السابع الميلادى . وكان على أهل المدينة أن يختاروا بين اثنتين ، إما الإسلام وإما الجلاء . ولعل الذين نزحوا عن المدينة كانوا قلة لأن التجانى يرى أن أهل توزر من نسل الروم الذين كانوا في إفريقية عندما فتحها المسلمون .

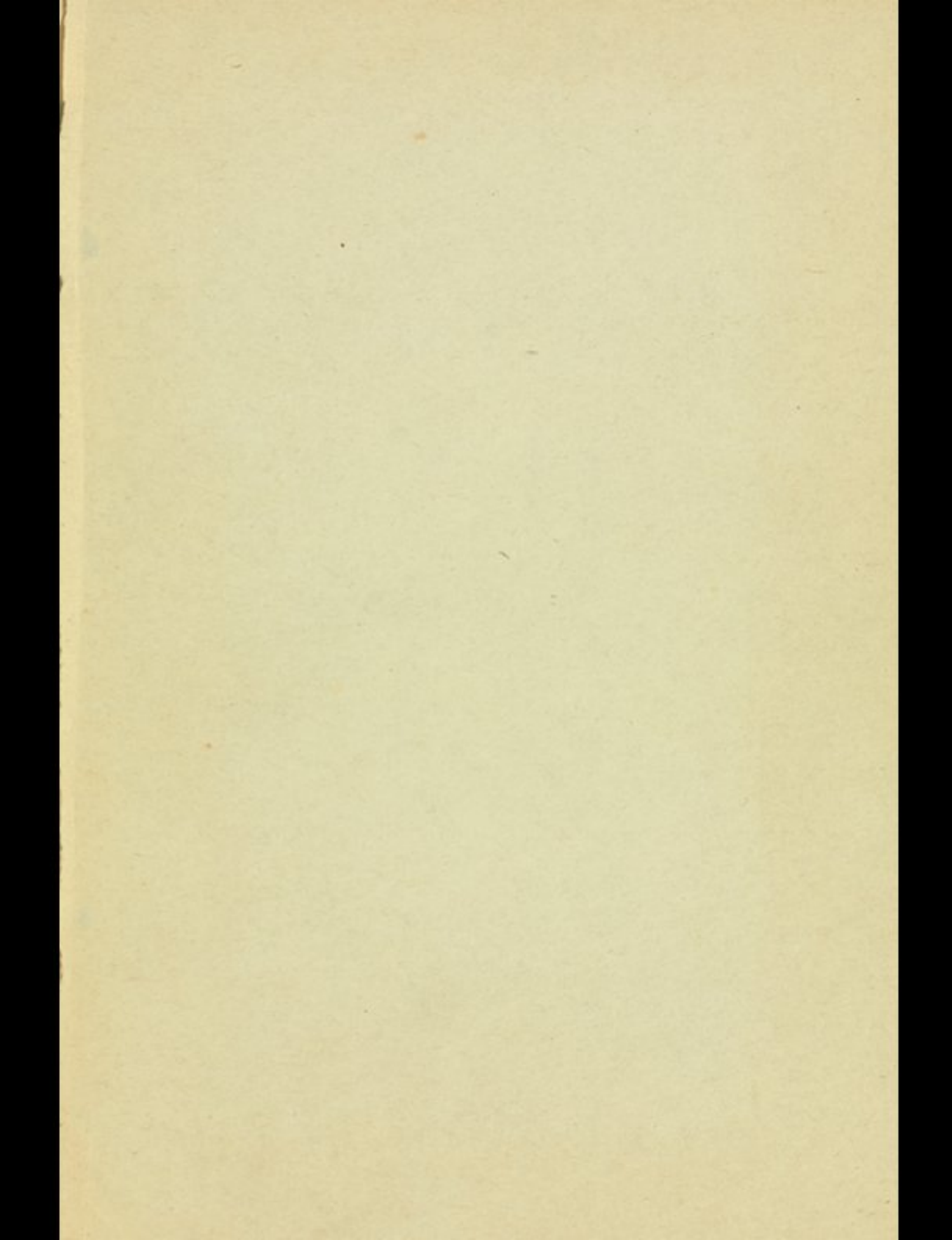
ويظهر أن توزر كانت في القرون التالية في رخاء عظيم . ويتفق ابن حوقل ، الذى يطلق على هذا الإقليم اسم قسطيلية ، والبكرى ، والادريسي في ذكر عظم تجارتها وكثرة نخيلها . ويذهب البكرى إلى أن ألف حمل من التمر يخرج منها كل يوم .

ولم يخل تاريخ توزر من الحوادث الجسام ، فقد خضع أهلها بالاسم لجميع الدول التى حكمت إفريقية ولسكنهم جاهدوا فى المحافظة على استقلالهم

وظهرت عداوتهم للفاطميين من مناصرتهم للثائر أبي زيد . وفي أيام
بنى زيرى حكمهم أمراؤهم من آل فرخان ثم من بنى وطاس . وقد نهب
على بن غانية مدينتهم في عهد الموحدين ، ثم استعادها الخليفة أبو يوسف
وتخلصوا من حكم بنى جعفر في نهاية القرن الثامن واعترفوا في القرن
الرابع عشر بإمارة ابن يملول . وقد تعذر على السلطان أبي العباس التخلص
منه عام ١٣٧٩ م . وقد امتازوا في عهد خلفائه بالعصيان ، وكثيراً ما أجبروا
أمراء تونس على امتشاق الحسام لردهم إلى طاعتهم . واختل أمن المدينة
بما كان ينشب بين الأهليين وقبائل العرب المجاورة من قتال . ولم يتغير
حالتها في العهد التركي إلا قليلاً ، ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر
اشترك أهل توزر في عدة فتن . وكان البايات يلاقون مشقة كبيرة في جباية
الضرائب . وزادت منازعات « الصف » في تعكير الأمن . وفي القرن
التاسع عشر اقتتل اثنان من هؤلاء الصف هما أولاد هدل والزبدة واحتل
كل منهما حياً من المدينة واستعرت الحرب بينهما حتى نشر الاحتلال
الفرنسى عام ١٨٨٢ م الأمن والطمأنينة في ربوعها .







OCT 30 1952

